

هكذا نهج لي الطريق

محمد علي باقري

الطبعة الأولى

١٤٤٥ هـ - ٢٠٢٤ م

للتواصل:

E-mail: maktabah.masjed.b@gmail.com

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين. والصلاة والسلام على محمد وآله الطاهرين

في هذه الأوراق إشكال كان قد وُجه إليّ، وما كنت قد أحببت به عليه...، وقد نشرت آنذاك الإشكال والجواب على لوحة المسجد آملا ومتوقعا لذلك نفعا كثيرا لمن يستمع لي...، ولكنني لم أجد ما توقعت، فكان إحساسي بالخيبة كبيرا، فأهملته كغيره من مقالاتي وأحاديثي، وكدت أنساه لولا أن كان قد يحدث في وقت وآخر ما يذكرني به

مما ذكرني بالمقال أن شخصا أبلغني أن لي أحاديث قديمة عن (المرأة في الإسلام)، وأنه قديما كان قد قام بإصلاحها، وأناي كنت قد اطلعت على ذلك في حينه، وقلت: الجهد المبذول لإصلاح الأحاديث وإن كان كبيرا لكنه لم يكن نافعا، ذلك لأن طبيعة أحاديثي لا تقبل التنظيم والإصلاح...

بالرغم من الملاحظة التي نقلها عني أبدى رغبته في أن يقوم بعرض ما كان قد فعله على بعض الأشخاص، ومن ثم نشره

لم أرحب بالاقترح، وأردت أن أبين السبب فلم أتوفق...

كنت أريد (والأصدق أنه كان علي) أن أضيف إلى الملاحظة التي نقلها عني بشأن أحاديثي فأقول له: إن ما كنت أنا أهدف

إليه بأحاديثي هو بيان الدين المتكون من مسائل مترابطة متعاضدة لبلورة المعرفة لطالب الدين وزيادة إيمانه...، ولم أكن أعرض المسائل لِيُنْظَرَ إليها كأمر متفرقة فيركز على بعضها دون بعضها الآخر...، وكنت أحذر ذلك وأخافه حتى في المرحلة التي كنت أهتم بالفكر وأروجه قبل أن أكتشف وأعرف أن الفكر الديني لا ينفع إلا أن يكون من يقوم بنشره قائما به ومتعهدا له ومسؤولا عنه...، ومن كان كذلك لا يكتفي بتجهيز فكرة لمجرد عرضها على أحد، بل ليلفت بها نظره إلى الدين ويرغبه فيه ويعينه على القيام لله، كالمؤمنين الذين كانوا مع النبي صلى الله عليه وآله حسبما قال الله عنهم: (وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَازَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ...) (٧٤ / ١)

ومن كان كذلك لا يزود بالفكر إلا طالبا للهدى مجاهدا في الله، أو من يرجو أن يكون كذلك، خوفا على الدين من أن يبتذل، أو يستغل لهدف دنيوي، كما حذر عنه ما في الكافي (٧٤ / ١) عن أبي جعفر عليه السلام أنه قال: « من طلب العلم ليباهي به العلماء أو يماري به السفهاء أو يصرف به وجوه الناس إليه فليتبوأ مقعده من النار. إن الرئاسة لا تصلح إلا لأهلها »

كان ذلك ما أردت بيانه بإجماله للمقترح لنشر أحاديثي عن المرأة في الإسلام، ولكنني لا فقط لم أتوفق لذلك بل شعرت

بأنه وجدني فظا فضجر وتأذى...، فتألمت من ذلك، كما ازددت
إحساسا بمرارة الفشل في ما كنت قد هدفت إليه...
تذكرت به المقال فراجعته، فرأيت أن أنشره في ملف (معذرة
إلى ربي)، وطمعا في أن يطلع عليه أحد فينتفع به...
ولم يتسن لي، ولم أجد ضروريا، أن أغير منه شيئا غير
بضع كلمات غير مؤثرة
ورأيت أن أضم إليه مقطعا من مقال آخر كنت قد كتبته
ونشرته على لوحة ديوانية المسجد في ٦/ رجب/ ١٤٣٧

محمد علي باقري

١٩ شوال ١٤٤١

بسم الله الرحمن الرحيم

الثلاثاء: ١٢/ج/١٤٢٠

إيضاح وردّ على رسالة انتقادية بشأن حجب الأحاديث...

نص الإشكال

استلمته من الصندوق صباح الاثنين: ١١/ج/١٤٢٠

السيد / محمد علي الباقر

المحترم...

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

لقد طلبتم أيدكم الله من المؤمنين المصلين المشاركة في إبداء وجهة نظرهم حول « الحديث الديني وكيف ينبغي التعامل معه » وقلتم ثبتكم الله أن الطريقة السائدة حالياً غير صحيحة في التعامل مع الحديث الديني، وعبرتم في حديثكم من يوم الجمعة قبل سفركم بعدم رضاكم عن هذا الأسلوب في التعامل مع الحديث الديني، والذي أوصلكم إلى هذه القناعة حسب تعبيركم عاملان هما: (١)

الأول: تجاربكم السابقة والتي عبرتم عنها بالطويلة والمريرة.

الثاني: أحاديث الكتمان المروية عن أهل البيت عليهم السلام.

وسيكون حوارنا منصب حول هذان العاملان اللذين بنيت عليهما قناعتكم هذه حتى يكون حوارنا مبتن على أرضية مشتركة وبالتالي يكون نافعا إن شاء الله تعالى. بالنسبة للعامل الأول وهو تجاربكم السابقة فقد رجعت بها لأرشيف مكتبة المسجد واستعرت بعض الأشرطة المسجلة لكم من بعض المؤمنين. وأما العامل الثاني فرجعت بها لروايات أهل البيت عليهم السلام في باب الكتمان من الكافي لثقة الإسلام الكليني (قد).

وسيكون حوارنا معكم في العامل الأول على القاعدة المعروفة..

وهي.. ألزموهم بما ألزموا عليه أنفسهم. (٢)

فمن خلال سماعي لعدد من الأشرطة لأحاديثكم توصلت إلى قناعة. وقناعتي هذه منطلقة ومتفقة بما ألزمت أنتم أنفسكم عليه.. (٣) فعلى سبيل المثال في أحد أحاديثكم المسجلة كنتم أيّدكم الله تحدثون عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والدعوة إلى الخير.

انطلاقا من تفسيركم للآية الكريمة « ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر » وقلتم ما

مضمونه إن الدعوة إلى الخير تختلف عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فالدعوة إلى الخير هي الأفكار والمفاهيم والمتبنيات، ففي الأول يجوز الإكراه بل الضرب في بعض الموارد أما هنا تقصدون الدعوة إلى الخير والتي ستصبح عقيدة والعقيدة ترفض الإكراه وتأبى الضغط وتنبذ الطاغوت أيا كان شكله ومصدره « فعليك البلاغ وعلينا الحساب ».

وفي شريط آخر كنتم تتحدثون فيه عن الخلاف بين المؤمنين وكيف يتم التعامل معه واستشهدتم بما تحويه الرسالة العملية للسيد الشهيد الصدر (قد) وقلتم أنها تحوي في مقدمتها على رأي السيد الشهيد عن مفهوم العبادة وقلتم مع عظمة هذا المرجع العظيم لكن يجوز لك حتى إذا كنت تقلده أن تختلف معه في المفاهيم والأفكار والمتبنيات لكن في نفس الوقت والكلام ما زال لكم تلتزم بمسائله الشرعية من المسألة الأولى حتى الأخيرة لماذا يكون الأمر كذلك حتى يبقى للإنسان أعز شيء خلقه الله فيه وهي إرادته وحرية واختياره.

وفي حديث آخر لكم كنتم تتحدثون فيه عن مهمة الرسل والأنبياء للبشر واستشهدتم بالآية الكريمة « وأرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط » وقلتم إن الله سبحانه وتعالى لم يقل ليقوموا الناس بالقسط بل قال ليقوم

الناس لأن الناس بأنفسهم يجب أن يقوموا فليست مهمة الرسل إجبار الناس وإكراههم على القيام والحركة إلى الله عز وجل بل مهمتهم حسب تعبيركم البيان، لأن الرسول ليس عليهم بمسيطر وليس عليهم بوكيل، فالله هو الهادي « إن يعذبهم فإنهم عباده وإن يغفر لهم فهو العزيز الحكيم. »

وفي حديث رابع لكم كنتم تفسرون فيه الآية الكريمة « وأنزلنا إليك الذكر لتبين لهم ما أنزل إليهم ولعلهم يتفكرون » وقلتم ما مضمونه لم تكن مهمة إنزال الذكر الصلاة والصيام وهذه الأمور بل مهمته بعد التبیین هو جعل الناس تفكر وتقف على قدميها « أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين إن نشأ ننزل عليهم آية من السماء فظلت أعناقهم لها خاضعين » فالله جلت قدرته لا يريد أعناقاً مشرّبة بل يريد قلوب مؤمنة عن وعي وبصيرة وعلم.

هذا غيض من فيض لما قلتموه واعتبرتموه من محكمات هذا الدين على حسب تعبيركم في أكثر من مناسبة وحديث. (٤) والآن عود على ذي بدء أين هذا الكلام عن إرادة الإنسان المؤمن وفكره وحرية واختياره من حكمكم الأخير عن الحديث الديني والذي يفهم منه أن على المتحدث أن يلحظ أثر حديثه على المستمع بمتابعته ومراقبته فإن وجد أثر لذلك وإلاّ منعه من الاستماع. (٥)

وهذا الموقف منكم من المستمع للحديث الديني على فرض صحته (٦) فهو يصطدم بما كتتم تعتبرونه من محكمات هذا الدين من حرية الإنسان المؤمن واختياره وفكره وحركته إلى ربه (٧)...*

هذا بالإضافة إلى ذلك فإن هذه المتابعة للمستمع للحديث الديني (٨) توجد فيه تكلفاً في التصرف إرضاء للمتحدث (٩) وقد تصل حالة التكلف في بعض مراحلها إلى النفاق (١٠) والعياذ بالله وهذا ما حذرت منه بعض الروايات علاجاً لهذه المشكلة. (١١)

والأكثر خطورة إذا ما توسعنا في هذا الباب فلن ينغلق أبداً فتصور - أيدكم الله - لو أن أحد أئمة المساجد الأخرى طلب من بعض المصلين بعدم جواز الصلاة خلفه بحجة أنه لم يلحظ عليهم أثر الصلاة التي المفروض منها أن تنهى عن الفحشاء والمنكر كما جاء في القرآن الكريم ومع أن هذا افتراض نظري إلا أنه على ضوء هذا المتبنى المطروح يكون أمراً على أقل تقدير غير مستبعد.. أليس كذلك. (١٢)

أما عن العامل الثاني الذي أوصلكم إلى حجب الحديث وعدم نشره هي روايات الكتمان لأهل البيت عليهم السلام.

* وُضعت نقاط مكان بعض العبارات

وقد راجعت باب الكتمان في الكافي لثقة الإسلام الكليني (قد) فوجدت ١٦ حديثاً جلها تتحدث عن وضع التقية التي يعيشها الأئمة الأطهار عليهم السلام (١٣) خاصة أنها صنفت بعد باب التقية مما يدل على امتداد البابين لنفس الغرض (١٤) ويكفي أن نستدل لتوضيح المرام من نفس الباب بحديثين:

١- في حديث طويل عن أبي عبد الله (عليه السلام) قال: (قولوا الخير تعرفوا به واعملوا الخير تكونوا من أهله ولا تكونوا عجلاً مذاييع، فإن خياركم الذين إذا نظر إليهم ذكر الله وشراركم المشاؤون بالنميمة، المفرقون بين الأحبة، والمبتغون للبراء المعاييب).

٢- وفي حديث آخر من نفس الباب عن عيسى بن أبي منصور قال: سمعت أبا عبد الله (عليه السلام) يقول: (نفس المهموم لنا المغتم لظلمنا تسييح، وهمه لأمرنا عبادة، وكتمانهم لسرنا جهاد في سبيل الله

قال لي محمد بن سعيد اكتب هذا الحديث بالذهب، فما كتب شيء أحسن منه).

وهذه الأحاديث كما ترى أيديكم الله أوامر إرشادية (١٥) تتكرر في أحاديث الأئمة عليهم السلام في أكثر من مورد.

فلم أجد في هذه الأحاديث علاقة لكتمان الحديث عن البعض ونشره عند البعض الآخر كما فهمتم أنتم من عنوان الباب وهو الكتمان (١٦)

نعم هي تحذر من العجلة والإذاعة، وهذه تحصل حتى في الحياة العادية. (١٧) بل على العكس من ذلك توجد فتاوى للسيد الخوئي (قد) وللإمام الخميني رحمه الله يفهم منها أن الأصل في الحديث هو نشره والاستثناء حجه. فقد سئل السيد الخوئي في استفتاء ما نصه...

« ما رأي سماحتكم في مسألة (حقوق الطبع) فهل يجوز تصوير الكتب، ولا سيما ما يحتاج إليه الإنسان، ولغرض الانتفاع لا للتجارة، وما كتب عليها حقوق الطبع محفوظة وغيرها » فكان جوابه قدس سره..

« لا أثر في هذه الجملة لصاحبها، ولا مانع شرعا من مخالفتها » - وفي تحرير الوسيلة الجزء الثاني - ص ٦٢٤، المسائل المستحدثة. فتوى للإمام الراحل (قد) ما نصه... ما يسمى عند البعض بحق الطبع ليس حقا شرعيا فلا يجوز سلب تسلط الناس على أموالهم بلا تعاقد وتشارط، فبمجرد طبع كتاب والتسجيل فيه بأن حق الطبع والتقليد محفوظ لصاحبه لا

يوجب شيئاً ولا يعد قراراً مع غيره، فجاز لغيره الطبع والتقليد
ولا يجوز لأحد منعه من ذلك. (١٨)

تفهم من مجموع هذه الفتاوى أن الأصل في الشيء الإباحة
إلا ما جاء الدليل بحرمة.

والله العالم

وفقكم الله لمرضيه، وجمعنا معكم على الهدى... (١٩)

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين. والصلاة والسلام على محمد وآله الطاهرين

تمهيد

١ - في التعليقات والمقالات المنشورة أو الخطاب العام في أيام الجمع وغيرها دعوت المؤمنين لانتقادي، فتطوعت بنشر كثير مما تلقيت من انتقاد بعد التعليق عليه لعدة أهداف مترابطة أهمها الاستفادة من ذلك كخطوة للدفع في طريق الحوار الذي لا بد منه للعلم المطلوب، ذلك على الرغم مما أواجهه من صعوبة شديدة في تحويل الانتقادات إلى حوار وتوجيهها إليه، فإن من الانتقادات ما هو أشبه بالمحاكمة، مضافاً إلى أن الانتقاد ليس الباب الطبيعي إلى حوار صالح...

أجل إن ذلك أهم ما أستهدفه من تعريض نفسي للانتقاد ونشر أشد الانتقادات أسلوباً وأقواها خلافاً بعد التعليق عليه، وعدم إعلان غير ذلك من رسائل التأييد والإسناد والتشجيع، الأمر الذي لا يكاد يفهمه إلا قلة قليلة جداً، فهناك من يتصور أن ما تصلني ليس إلا ما أنشره من رسائل الانتقاد فحسب، وهناك من يحتار في أمرى إذا رأي أني أقتصر على نشر الانتقاد فقط خصوصاً إذا

وجده شديداً، فكم من عزيز قد أبدى حيرته مما أفعل ونصحتني بعدم نشر الانتقاد خصوصاً إذا كان شديداً، خوفاً من ابتذال ما نجاهد لأجله...

٢- لم أستهدف من هذا التعليق شخص المتتقد وإن وجهت الخطاب إليه في الظاهر، شأنه في ذلك شأن أكثر ما كتبت من التعليق على الانتقادات، وإنما استهدفت القارئ الباحث عن العلم، أملاً في أن يقرأ الانتقاد بدقة وموضوعية وبحثاً عن الهدى، حاملاً فعل الناقد على الصحة بأنه أراد تبصيري بأخطائي بغية إصلاحها، فهو بهذا قد مارس حقاً، بل أدى واجباً، ولا يمنع عن ذلك طريقته التي قد لا يستسيغها البعض، فإن الناس متفاوتون في أساليبهم، وليحتمل أن أسلوب المتتقد قد يكون متأثراً بتأذيه مني، وهو أمر متفهم، وإن لم أكن قادراً على علاج أذاه، ولا حول ولا قوة إلا بالله هذا وأتمنى أن لا يتأثر طالب العلم بردي للانتقاد، وأن يجاهد نفسه ليقارن بإنصاف شديد بين الصورتين: الصورة التي يحاول الانتقاد إيجادها، والصورة التي يحاول التعليق بيانها، وذلك بمقياس الحق الذي يفترض أن العاقل يعرفه بدرجة أو أخرى لو تعقل الأمر، فلو وجدني مخطئاً في التعليق نبّهني فإما ازددت علماً، وإما رددته فازداد هو بذلك علماً إن شاء الله...

التعليق

عليكم السلام ورحمة الله وبركاته

ترددت في التعليق على انتقاداتك ونشره، فمن جهة رأيت فرصة واقعية لبيان بعض المسائل وتوضيحها، وهي ما أترصده وأغتتمه، ومن جهة أخرى فقد أثبتت التجربة أن التجاوب مع هذا النمط من الحوار الإلزامي لا يساهم في التفاهم والتقارب بل يشجع على التخاصم والتباغض ومزيد من التباعد، وهذا ما أتجنبه وأفر منه حتى إذا لم يرد فيه منع كما في الكافي (٣٠٠/٢) عن أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال: « إياكم والمراء والخصومة فإنهما يمرضان القلوب على الإخوان وينبت عليهما النفاق »

الانتقاد فرصة للعلم

بعد تدبر الأمر وملاحظة الأمرين وموازنة الجهتين رأيت أن أستفيد من هذه الفرصة وأعلق على انتقاداتك ولكن للمرة الأخيرة فلا أتجاوب معك بعد هذا إلا إذا رأيت نفسك بحاجة إلى حوار مباشر ورغبت إليه واستطعت الانكشاف، أو حددت نفسك ليتمكن الاتصال بك والاستفسار عما يتضمنه انتقاداتك عادة من نقاط مبهمة لي، على أن لا تعتبر هذا دعوة وطلباً، أو تعهداً مني بالتجاوب معك، فقد لا أنشط للحوار مع بعض

الأشخاص وإن كان مباشرا، ولا أرى نفسي مضطرا لبيان السبب ما دمت أملك نفسي كما يملك غيري نفسه

أجل إني وجدت في الانتقاد منطلقا واقعيا لبيان ما أراه نافعا لطلاب الحق وبغاة العلم، فالهدف الأساس من نشر الانتقادات بشكل عام هو القارئ، فعليه أن يتعامل معها بجِد واهتمام شديد كما هو ديدن الباحث عن الهدى ومتبع الحق، فإن وجد فيه علماً اغتنمه فرصة للبحث عن الحق المنشود، فإن تبين له تمسك به واتبعه، ومن ثم حاول أن يلفت نظري إليه، ولا يستصغر نفسه عن طرح الحق والدعوة إليه، فإن وجدني جاحدا للحق ورافضا له رفضني وتركني، فإن الحق أولى بالقبول والاتباع، وإن وجد الانتقاد خاطئا حاول أن يكتشف أساس الخطأ فيزداد بذلك علما وبصيرة

هذا وإني قد نشرت نص الانتقاد بعد أن أضفتُ إليه أرقاما لتمكين القارئ من ربط التعليق المرقم بالفقرة المرقمة بنفس الرقم في أصل الانتقاد

(١) - المطلوب كان أمرا محددا

راجعت ما كنت قد قلته بين الظهريين من يوم الجمعة (٩/ ربيع الثاني/ ١٤٢٠ هـ) قبل سفري، فلم أجده فيه ما نسبته

لي فإني لم أدعُ الحضور لإبداء نظرهم إلا حول حوار معيّن
افترضته بصورة قريبة لفهم عامتهم، وإليك نص ما قلتُه آنذاك
بشيء من الاختصار بحذف بعض العبارات الزائدة:

نص الدعوة...

بسم الله الرحمن الرحيم

الموضوع الذي.. أطرحه عليكم.. لتتفكروا فيه وإن شاء الله
إلى أن أرجع فتعينوني.. أستقرئ آراءكم. تضعون آراءكم في هذا
الصندوق المُعد لهذه الأشياء... وأعتبرك إنساناً مسؤولاً...، هكذا
أفترضك. وعلى هذا الأساس أتكلم معك.

شخص يقرأ القرآن ثم ينتبه أن شخصاً آخر يكون جالساً قريباً
منه فيخفّض صوته. الشخص يقول: كنت أستمع لك. استمر في
قراءة القرآن.

الشخص الأول يقول: لِمَ تستمع لي؟

الثاني: لأنّ صوتك حلو وتقرأ القرآن بصوت جميل فأستمع
لك، وهل استماع القرآن يحتاج لسؤال؟!

الأول: هل سمعت من قراءتي شيئاً؟... كنت أقرأ (مثلاً) (إنّما
المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم آياته

زادتهم إيماناً وعلى ربهم يتوكلون)... هل حينما تليت عليك آيات الله واستمعت إليها هل زادتك إيماناً؟

الثاني: أنا أستفيد. أنت لِمَ تسألني هذه الأسئلة؟.. الزيادة الإيمانية راجعة لي، مرتبطة بشخصي

الأول: صح، لا أحد يحق له أن يتهمك أو يحاكمك. لكنك تطلبني أنا بقراءة القرآن لك لتسمعه.

الثاني: استماع القرآن.. على أي حال فيه ثواب

الأول: أنا لا أعرفك ولا أدري أن القرآن ينصبّ في نفسك...، ويهديك (إنّ هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم) أم... يتحول إلى لغو في الكلام بالنسبة لك، أنا لا أدري، لا أتهمك. فلاّني لا أدري أكرم القرآن لأن يضيع (وإذا قرأ القرآن فاستمعوا له وأنصتوا لعلكم ترحمون)

يدور الحوار إلى أن الشخص الثاني يقول: ظاهري يكفيك! الشخص الأول يقول: أنا أضرب لك مثلاً. لك كلام.. تهتم به، تتكلم ولا تدري أنّ المستمع هل معك أو لا يهتم بكلامك وظاهره أنه فقط ساكت. هل تتكلم؟... لأنني أكرم كلامي أن أضيعه لا أكلّم إلاّ من يهتم بكلامي. وكلام الله..... (الله نزل أحسن الحديث كتاباً متشابهاً مثاني تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثمّ تلين قلوبهم

وجلودهم إلى ذكر الله ذلك هدى الله)، أنا لا أفعل.

أي من المنطقيين هو الصواب؟ بلا تعصب، بلا تأثر بالأجواء. كإنسان مسؤول متعهد...؟ فكر. الكلام الذي يُستهدف به الهدى هل يجب أن يوضع في موضع، المتحدث، المتكلم أو القارئ له (يجب أن) يحتمل أن هذا ينتج النتيجة التي تُطلب به؟ أم لا؟.

الإنسان يتحدث أو يقرأ القرآن ويذيعه، بعد ما عليه شيء. ناس استفادوا (أم لا)، كله واحد.

هذان أسلوبان، هذان طريقتان. أي من الطريقتين هو الصواب في نظرك؟ بمعزل عن الحكم الشرعي. نحن لا نتحدث هنا عن المسائل الشرعية بهذا اللحاظ. فكر كمسؤول، درّب نفسك على ممارسة تعهدك.... فكر في هذه المسألة اكتبه طيّ نقاط محددة وإن شاء الله بعد أن أرجع من السفر،... ونستفيد، نتعاون، نتحاور إن شاء الله

لابد من تحديد موضوع الحوار

ذلك هو خلاصة ما قلته يوم الجمعة قبل سفري، وكما قلت لم أطلب فيه إلاّ إبداء الرأي بشأن حوار محدد كنت قد افترضته ليكون قابلاً للتداول... وأما طريقتي والأسس التي أنطلق منها فإنني وإن كنت قد أشرت إليها في بعض المناسبات لكني لا

أظنني دعوت الحضور لإبداء آرائهم بشأنها، ولو فعلت ذلك كان عليّ أن أبين ما أقصد بتجربتي وأحددها لتكون واضحة قابلة للحكم، وكذلك الروايات التي أعتمدها وكيفية الاستناد إليها أجل لا أتصور أنّي قد فعلت ذلك، ولا أتصورني أفعله إلاّ في حوار علمي متفق على طريقته وهدفه، ولو كنت قد أعلنته بالصورة المذكورة في انتقادك فإنني كنت مخطئاً في ذلك، وما أكثر أخطائي الناتجة عن الغفلة

إنني أتعجب كيف تصورت أنني قصدتُ بتجاربي المريّة أحاديثي السابقة لتكلف سماعها...، ولو سألتني عنها - ولو برسالة خالية من التوقيع - لأرحتك من عناء سماعك لكلام لا تحبه

(٢) - الخصومة والإلزام

أعجبني صراحتك بأنك تستهدف إلزامي... ولكنك لم تكن موفقاً في قولك: « وسيكون حوارنا معكم في العامل الأول على القاعدة المعروفة... وهي ألزموهم بما ألزموا عليه أنفسهم »، لأن ما أشرت إليه إنما هو قاعدة فقهية تُعرف باسم قاعدة الإلزام استناداً إلى كلام مروي (الوسائل: ١٥ / ٣٢١) عن

الإمام الكاظم عليه السلام جوابا على سؤال عن المطلقة على غير السنة أيتزوجها الرجل؟ فقال: «ألزموهم من ذلك ما ألزموه أنفسهم وتزوجوهن فلا بأس بذلك»

فالقاعدة إنما توسع على الناس وتصحح لهم بعض الآثار العملية لأعمال المخالفين الباطلة في الحقيقة، كالزواج من امرأة كان قد طلقها المخالف طلاقا بدعيا، فيجوز نكاحها بعد الاعتداد على الرغم من كون الطلاق باطلا عندنا...، فليست لتلك القاعدة الفقهية أية علاقة بما قمت به أنت تجاهي

الجدل والتخاصم

ولكن هناك طريقة شائعة بين الناس معروفة باسم (الجدل) إنما يُستهدف بها الغلبة على الخصم وإفحامه بالإلزام، فمثلا في ص ٣٧٤ من كتاب (المنطق) لشيخنا المظفر (ره):

«وأما الجدل فإنما يعتمد على المقدمات المسلمة من جهة ما هي مسلمة، ولا يشترط فيها أن تكون حقا، وإن كانت حقا واقعا، إذ لا يطلب المجادل الحق بما هو حق - كما قلنا - بل إنما يطلب إفحام الخصم وإلزامه بالمقدمات المسلمة سواء أكانت مسلمة عند الجمهور وهي المشهورات العامة والذائعات أم مسلمة

عند طائفة خاصة يعترف بها الخصم، أم مسلّمة عند
الخصم خاصة »

لا إلزام إلاّ بحوار مباشر

يبدو أنّك قصدت هذا، ولكنك أخطأت الطريقة، فإن الإلزام لا يحصل بمجرد الإشكال على الخصم كيفما كان، بل باستدراجه وسدّ منافذ الهرب في وجهه، وهذا لا يكون إلاّ بالتحاور المباشر، فالمحاورة مما لا بد منه في الجدل بخلاف صناعة البرهان - أي الاستدلال للعلم وإثبات الحق - حيث لا يجب فيها المحاورة، وإن كنت أرى الحوار مهمّا جدا في الاستدلال على الحق أيضا حتى لو كان الحق عبارة عما يُتصور من أنه مسائل متفرقة محقّقة خارجا بمعزل عن الإنسان

(٣) - لا إلزام بلا التزام فعلي

لم يكن صحيحا ما افترضته من أنّي « ألزمت نفسي بما أشرت إليه من رأي » فإنني لم أصرّح بالالتزام بذلك، وحتى لو كنت قد فعلت ذلك سابقا فإنّه لا يكفي للالتزام فعلا، إذ لا يمكن إلزام الخصم بما كان يراه سابقا إلاّ بعد التأكد من اعترافه به الآن...
أجل إنّي لم ألزم نفسي بما ذكرت، ولا ألزم نفسي بجميع

أقوالي وآرائي السابقة، فليس كل ما كنت أراه صحيحا أراه كذلك الآن، بل وإنِّي دائم المحاسبة لآرائي لأجل تصحيحها... وأظن هذا معروفا لمن استمع لي بجد فإنِّي أعلنته كثيرا وركزت عليه باعتبارهِ أساسا في حركتي الاعتقادية، وإنِّي مستعد لبيان وضعي بهذا الشأن لك أو لغيرك في تحاور حقيقي مباشر مفيد

(٤) - ما زلتُ أعتمد الحرية

ما زلتُ أعتقد أن الدين يعتمد ما كنت أعبر عنه بالحرية وأنه أساس في التدين، فهذا مما لم يتغير رأيي بشأنه بل ازداد قوة ورسوخا ووضوحا، وإن ما أفعله الآن ليس في واقعه تنازلا عما سمَّيته بالحرية بل تثبيتا له بتصحيح الطريقة التي كنت أسلكها لتحقيقه، وذلك بعد أن علمت بالتدريج أن ذلك - أي ما كنت أسميه حرية - لا يتحقق إلا بالولاية، شأنه شأن جميع ما لا بد منه في الدين فإن الولاية هي (باب الأشياء)... وهذا ما سيتبين إن شاء الله من التعليق (٧)، وأستعجل هنا نبذا مرتبطا بالحرية عسى أن يجعل الله فيه خيرا ونفعا لطالب العلم، فأقول:

للحرية دلالات متضاربة

إن واقع (الحرية) كنزعة إنسانية عامة مما يمارسه الناس

جميعا ولو في قرارة نفوسهم، فهو بهذا معروف ولكن بإجمال
 أب عن التفصيل، شأنها في ذلك شأن النزعات الإنسانية الأخرى
 كالحب مثلا... ولكنها لا تكون كذلك إذا عوملت (كمفهوم)
 للتداول الفلسفي أو التشريعي أو الدعوي مثلا، فمن هنا حصل
 كثير من الاختلاف في تعريفها بين متناوليها لهذا وذاك، فمثلا
 هناك نظرية فلسفية معروفة تقول: «إن الحرية ليست إلا عملية
 فهم السنّة الكونية (أو التاريخية) القاهرة والتنسيق معها»، بل
 وحتى أصحاب المذهب العالمي المعروف بالليبرالية الذي
 يعتمد الحرية شعارا يختلفون في تعريفها وبيان حدودها...
 فلا يمكن التعامل مع (الحرية) على أن مفهومها محدد واضح

العالم يدعو للحرية

ومن جانب آخر لم تُعد (الحرية) تلك النزعة الطبيعية
 الفطرية المعروفة بإجمالها بعد أن ركزت عليها اختصاصات
 شتى من الفلسفة والنفس والاجتماع والتشريع... وخصوصا
 بعد أن تبتتها الدعوة العالمية لحقوق الإنسان كهدف وغاية،
 وروّجتها بين الناس ودعت إليها... وبما أن العالم ليس الآن
 إلا كقرية واحدة فكان من الطبيعي أن تنحرف نزعة الحرية
 الطبيعية عند الناس عامّة وتتجه إلى ما هو (حرية) في نظر
 إمامة العالم، وما تؤم الناس إليه

كذلك أخذ الناس بشكل عام ينساقون إلى الحرية، بل
وينزعون إليها بالطريقة الرائجة، لا لهدف آخر بل لنفسها كما
تفعل إمامة العالم الآن

... ويدعو إلى (الحرية الدينية)

ومما تأثر به الناس من دعوة العالم بهذا الصدد ما ركزت
عليه المنشورات العالمية لحقوق الإنسان بعنوان (الحرية الدينية)
أو (حرية المعتقد)، وهي تعني أن كل إنسان حر في ما يعتقد،
وأن الدين لله فلا يحق لأحد أن يتصدى لأحد في ذلك أو يتدخل
فيه، بل وعليه أن يحترم ما يعتقد الآخرون...

لا يدعو الدين إلى الحرية لنفسها

يبدو أن المنتقد قد حمل كلامي عن (الحرية) على ما هو
الرائج من مفهومها، وتصوّر أنني دعوتُ إلى الحرية (الدينية)
حسبما هو السائد من الدعوة إليها باعتبارها غاية ذات قيمة
ذاتية، وليس ذلك صحيحاً فإني كنت أعرف أن الإسلام لا يدعو
إلى شيء غير الله وحده، وأن كل ما يدعو إليه ظاهراً إنما هو
لأجل تلك الغاية، وأن إِلِيهِ الْمُنتَهَى وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ، وإنني وإن
كنت لا أذكر الآن تفاصيل كلامي سابقاً، لكنني أعلم إجمالاً
أنني كنت أذكر هذه الحقيقة وأبني عليها، ولم أكن أدعو إلى ما

عَبَّرْتُ عَنْهُ بِالْحَرِيَّةِ إِلَّا فِي النِّطَاقِ الْمَذْكُورِ، أَيْ بِلِحَظِ كَوْنِهَا
ضَرُورِيَّةً لِلتَّقَرُّبِ إِلَى اللَّهِ وَالتَّوَجُّهِ إِلَيْهِ، وَهَذَا شَرْطٌ يَرْفُضُهُ دَعَاةُ
الْحَرِيَّةِ كَمَا هُوَ مَعْرُوفٌ، وَكَمَا أَشْرَتْ إِلَيْهِ فِي الْفَقْرَةِ السَّابِقَةِ

التدخل الديني يعتمده الإسلام ويرفضه الكُفر

أؤكد أن ما عَبَّرْتُ عَنْهُ بِالْحَرِيَّةِ فِي الْإِسْلَامِ يَخْتَلِفُ عَمَّا
يَدْعُو إِلَيْهِ الْعَالَمُ الْآنَ مِنَ الْحَرِيَّةِ الدِّينِيَّةِ، وَذَلِكَ لِأَنَّ الْإِسْلَامَ
إِنَّمَا انْطَلَقَ فِي دَعْوَتِهِ مِنْ أَسَاسٍ أَنَّ الدِّينَ الْمَتَمَثِّلَ فِي الْإِسْلَامِ
فَطَرِيٌّ، فَشَرْعٌ - فِي مَا شَرَعَ - الْجِهَادَ لِكَسْرِ الْقِيُودِ وَدَفْعِ الْفِتَنِ
لِيَسْتَطِيعَ الْإِنْسَانُ مِمَارَسَةَ حَرِيَّتِهِ فِي إِقَامَةِ وَجْهِهِ... بِخِلَافِ
الْعَالَمِ الْآنَ حَيْثُ يَكْفُرُ بِذَلِكَ الْأَسَاسِ فَيَعْتَبِرُ أَيَّ تَدَخُّلٍ فِي
تَعَامُلِ النَّاسِ مَعَ الدِّينِ تَدَخُّلاً فِي حَرِيَّتِهِمْ يَجِبُ التَّصَدِّي لِه،
فَكَيْفَ بِأَمْثَالِ قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: « قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا
بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ
الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ
صَاغِرُونَ »، وَقَوْلِهِ: « ... اقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ
وَخُذُواهُمْ وَاحْصِرُوهُمْ وَأَقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصِدٍ »!؟

تصورتُ الأمرَ واضحاً

أجل إنني كنت أقصد بالحرية ما استنبطته من القرآن الكريم

باعتبارها ضرورية للتفكير ومن ثمّ التدين، وكنت أتصور أن هذا كان يظهر للمستمع من خلال أحاديثي، وأظن أنني لم أكن أكتفي بذلك بل كنت أبتّيه بين حين وآخر أنني لا أقصد بالحرية مفهومها الرائج، حيث أنها كانت مصطلحا معروفا، كما قلت، وإني كنت حساسا تجاه المصطلحات الرائجة، فلو أن أحدا تابع أحاديثي آنذاك بموضوعية لوجد الحساسية المذكورة ظاهرة...

هذا وأظن أن المنتقد نفسه وجد فيما سمع من كلامي السابق أنني في الوقت الذي كنت أحث على الحرية كنت أنتقد أيضا غير المتدينين ولم أكن أرى ذلك الانتقاد منافيا للدعوة إلى الحرية، ولم يكن ذلك إلاّ لأنني لم أكن أرى اللامبالين بالدين أحرارا، ومعنى ذلك أن مفهوم الحرية، وكذلك الهدف منها، كان يختلف في نظري عما عند اللامبالين بالدين، بل وعما يتصوره كثير من المهتمين بالدين

للفت الأنظار...

أما الهدف مما قمتُ به من الدعوة إلى ما سمّيته بالحرية، وبالأحرى: الهدف من تركيزي عليها فهو لفت الأنظار إلى ما لاحظته من شيوع التبعية والتقليد في التدين، خلافا لما يحدث عليه الدين ويعتمده من التعقل واتباع العلم... وهذا ما سيأتي بشيء من التفصيل عند الحديث عن تجربتي

الحرية بلا ولاية

ومع ذلك أعترف أنني أخطأت في استعمال كلمة (الحرية) بتركيز، وكان عليّ الانتباه إلى أنها ستقود عملي إلى جهة مناهضة لهدفي رغما عني كما فعلت ذلك في نفس المنتقد كما يبدو، خصوصا وإنني لم أكن أخضع حديثي للولاية بل كنت أحاول أن أبعد عنه تأثيري وولايتي باعتبارها قيда منافيا لما كنت اعتبره حرية المستمع!!، قبل أن أعرف أن حريته لا تتحقق إلا بالولاية... أجل أعترف بأن ما قمت به من التركيز على الحرية كان لا بد وأن يُطغيها، وأنه لا شيء يستطيع تعبيدها وربطها بمعالم الدين الأخرى إلا (الولاية) كما أشرت إليه آنفا، وكما هو مذكور في التعليقة (٧) الآتية

تلخيص وتأکید

أنا أعتمد الحرية كالسابق، ولم يتغير رأيي بهذا اللحاظ، وإنما بلحاظ ما يحقق الحرية المطلوبة، أي الحرية التي تستتبع التدوين عبر التفكير، وقد كنت أتصور أن التركيز عليها يساهم في تحقيقها، ولكن وجدت أن ذلك أخرجها عن طورها وأطغها وجعلها غاية فلم أعد أركز عليها، وتصورت أن مشكلة الناس

هي الفهم فحاولتُ أن أجهّز لهم مفاهيم من القرآن غفلة عن أن ذلك ليس هو التعامل المطلوب مع الدين... وكنت أتصور أن الكلام العام يكفي لإيجاد الحرية المطلوبة، فوجدت أن ذلك لم يثمر شيئاً...

إن السبب الرئيس لكل ذلك الفشل هو أنني لم آتِ الدين من بابهِ الذي هو الولاية التي حاولتُ أن أشير في التعليقة (٧) إلى كيفية ارتباطها بجوانب الدين المختلفة، وأستبقه هنا بذكر شيء من ذلك مرتبطٍ بما أشار إليه المنتقد بشأن الاستشهاد على الحرية بآيات من القرآن فأقول:

الاستشهاد بالقرآن وحده

ليس ما كنت أستاذ إليه للحرية مقتصرًا على الآيات التي أشار إليها المنتقد، ففي القرآن الكريم آيات كثيرة تدفع المرء في اتجاه ما سمّيته بالحرية ولكن في الجانب الآخر هناك آيات تصادم ذلك كقوله تعالى: « يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ » وذلك لأن المنافقين هم الذين أقروا بالإسلام وأظهروه، فإن مضايقتهم لنفاقهم تنافي الحرية المطلوبة، ولا شيء يستطيع جعلهما متعاونتين في الواقع إلا أن نُقرنا بولاية النبي صلى الله عليه وآله التي كانت قائمة آنذاك وتُلحظ معها...

...أنهما لن يفترقا..

وأما الآن فلأن تلك الآيات - كغيرها - لا تُلاحظ مقترنة بولاية النبي (ص) بما لها من امتداد فلا بد أن تتصادم فيما بينها فتعطل بعضها أثر البعض وقابلية هدايته للنفوس، بل وأن يصبح القرآن ألغازا يحтар المرء في فهمها قبل أن يضطر للحيلة في التعامل معها، ولا تنفع محاولات المفسرين لحل المشكلة، بل وتزيدها إشكالا كما لا يخفى على عاقل، ولا حول ولا قوة إلا بالله

هكذا كان استشهادي بالقرآن بمعزل عن الولاية باطلا، خاصة بشأن (الحرية) بلحاظ بُعدها الدعوي الذي كنت أتناوله، حيث أن ذلك مما لا يخفى حاجته الشديدة إلى ولاية ضابطة...، كما أنه كان باطلا دعوتي إليها بلا تدخل مني لهدايتها في الاتجاه الصحيح وتحديدتها وضبطها لمنع انفلاتها ما دامت المحجة متنكرة والإمامة غائبة، ولا ولاية ضابطة قائمة...

للحرية إمامة قائمة

ويزيد المشكلة إشكالا وخطورة أن هناك مذهبا قائما يتولى الحرية ويدعو إليها، فمن الطبيعي أن تصب الدعوة إلى الحرية بلا ولاية وضبط حقيقي في مصب ذلك المذهب... كذلك كان المذهب الليبرالي السائد يستلم نتائج جهودي في الحث على

الحرية ويسوقها نحو هدفه كما يفعل ذلك بنتائج جُلّ الجهود الدينية التي يقوم بها أناس بإخلاص هنا وهناك لولا جميعها، وذلك لأن الليبرالية إمامة قائمة، فهي تُفشل العمل الذي لا إمامة له، وتُبطّله وإن كان صالحاً في نفسه، كما أن الإمامة العادلة من الله تُبطل مفعول السيئات وتنمي الحسنات كما في الكافي (٣٧٦/١) عن أبي جعفر عليه السلام...

(٥) - مجرد تطلّع وملاحظة...

لأنّك تكرر هذه الكلمات وتبني عليها إشكالك أنه القارئ إلى أنني لا أفعل هذا الذي ذكرته بالضبط، وإنما الذي أفعله هو أنني أتوقع لحديثي الديني أثراً على المستمع وأتطلع إليه، فإن لم أجد الأثر المتوقع على المستمع امتنعت عن التحدث إليه بحجب حديثي عنه، وهذا كل ما أفعله مع المستمع، وهو يختلف عما أنت تركز عليه بأنني أتابع المستمع وأراقبه مما يوحى بأنني ألاحقه وأضايقه.. الخ

اللهم بلى لأنني أحب أن أجد لحديثي نفعا فقد أسأل المستمع عن مدى اهتمامه به وعن خلفيته الدينية وما كان قد قرأ أو سمع من مقال، وأراقب كلامه في بعض الموارد وألاحظ مواقفه، متمنياً أن ألاحظ في هذا وذاك ما يشير إلى أن حديثي قد نفعه فعلاً أو

بدأ ينفعه ولكنني أكتفي بما يظهر لي منه حين وجوده معي في المسجد أو الديوانية، ولا أتصدى لأحد من المستمعين بأكثر من ذلك وإن كنت أحب أن أعرف عنهم ما ينفعني في التعامل معهم، وقد أسأل أحدا عن بعضهم ولكن من دون ترصد أو متابعة...

(٦) - واشوقا إلى رفيق في (الطريق)

مع افتراض صحة الموقف الجديد، فهل كان عليّ أن أتعصب للموقف القديم الذي ساءلني وجدته ناقصا فاقدا لما هو أساس جدا، وأن لا أتنازل عنه لئلا يظهر للناس أنني أخطأت؟ أم كان عليّ أن أرغم أنفي لله صاغرا وأتبع الحق مسلما، وأحاول أن أكون ممن روى نهج البلاغة (ص ١٨٢) عن أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال: «إن أفضل الناس عند الله من كان العمل بالحق أحب إليه وإن نقصه وكرهه (أي اشتد عليه) من الباطل وإن جر إليه فائدة وزاده...؟ أظنك لو تدبرت الأمر جيّدا لوجدتني أهلا للتشجيع على ما فعلتُ بدل اللوم، وليتك فعلت هذا فكنت عونني في الهجرة المستمرة من الجهل إلى العلم، وسندي في أن أكون (توّابا) إلى الحق لا أتقي في ذلك أحدا، ولا أخاف لومة لائم...»

(٧) - محاولة ...

ليس ما تصوّرته من أن حجب حديثي الديني عمن لا أعرفه يناقض الحرية التي اعتمدتها في الاعتقاد...، وهذا مما لا يمكنني بيانه إلا في حوار حقيقي مباشر متدرج متواصل يُستهدف به العلم لا الإلزام، ومع ذلك فقد أشرتُ في التعليقة (٤) إلى بعض ما يرجع إلى هذه المسألة، وإنني أحاول أن أشير هنا إلى جوانب أخرى منها من خلال مرور سريع على تجربتي بهذا الصدد، متضرعا إلى الله عزّ وجلّ أن يجعل في هذا نفعاً لطالب العلم إنه سميع مجيب

تجربة مريرة

لا يخفى أن استعمال الولاية بمعنى (التأثير) شائع في الدعوة الدينية، وبصورة مبالغ فيها بدرجة كادت أن تكون الأساس الوحيد للتعامل الديني، لا في ما لا بد فيه من التأثير كالمواعظ، بل فيما يرجع إلى الاعتقاد وأصول العقيدة أيضاً، فكانت الظاهرة المشهودة أن كاد لا أحد يخرج من خطاب ديني بأكثر من مجرد التأثير...

خوف وقلق... ومحاولة...

لما أخذت أتأمل الأمور بدأت أشعر بقلق شديد وخوف على الدين من الولايات حيث لم يكن هناك ما يكبح جماحها ويوقفها عند حد، خصوصاً وأن حدود الدين لم تُعد واضحة في نفسها فيحترق المرء فيها إلا أن يفترض لنفسه حداً بتعصب فيقف عنده ويتصدى أيضاً للآخرين...

البحث بالتعقل، لا ب...

بدأت أبحث عن مسائل الدين بتعقل بعيداً عن التأثير بشيء أو بأحد، أي لا بالولاية بمعنى التأثير والتأثر، وأقصد بالتعقل الطريقة التي يفكر بها الناس عادة في حياتهم الطبيعية فيها يقبلون أمراً أو يرفضون... ولم يكن إذن يغنيني ما هو موجود

في الكتب الكلامية المعروفة باسم العقائد، إذ أنه يعتمد الطريقة المنطقية المعروفة التي أرى الناس لا يفكرون بها ولا يفهمونها، ولذلك لا يعتقدون بها، بل لا أظن أن يُتوقع منها اعتقاد حيث لا يعتمد عليه أحد في الخطاب الديني، بل ويتجاهله تماما، مقتصرًا به على التداول المدرسي فقط

ومن الطبيعي أنني كلما تقدمتُ في البحث اكتشفت مزيدًا من الشواهد على أن الإسلام يدعو إلى التفكير والتعقل والعلم، ويبتني حرية الإنسان، وكلما نظرت إلى الطريقة الرائجة في الدعوة الدينية ترسخت قناعاتي بمناهضتها للتعقل والعلم والحرية، وازددتُ استنكارًا لها، واشتدت قناعاتي بضرورة التركيز على الاعتقاد تعقلًا لا تأثرًا بأحد وإن كان نبيًا حيث لم يجعله الله على الناس بمسيطر...، ومن هنا شاع عني القول بأنه « لا ولاية لأحد على أحد في الفكر »...

لم أكن بدعا من الناس ولكن...

لم أكن بدعا من الناس في القول بأن الدين يدعو إلى التفكير والتعقل والحرية، فمن المعروف الشائع القول بعدم جواز تبعية الشخص لأحد في الاعتقاد وتقليده في ذلك، ولكني لم أكتفِ بإعلان ذلك القول وحسب، وإنما حاولت تطبيق الأصل المذكور وتجسيده في الواقع فأخذت أدعو إلى الحرية

والتدين بالتفكير بعيدا عن التأثير، ونهضت بالبحث عن الفكر الديني الحرّ وتجهيزه ومن ثم طرحه بعيدا عن المؤثرات التي تؤثر عادة على الإنسان وتُفقد الحرة المنشودة، وقمت ببيان العوامل المؤثرة سلبا على حرة الإنسان في التدين، وبتحذير الناس عما هو رائج في الخطاب الديني كزينة الصوت والمنظر وغير ذلك من عوامل التأثير...

لا أدعي أنني كنت الوحيد الذي اهتم بحرية الفكر جدًّا، وإن ظننني كذلك، خصوصا وأنا كنت قد (اعتمدت) تلك الحرة بدرجة كتبنا على كل شريط متضمن لحديث من أحاديثي النص التالي: « إذا استطاع هذا الحديث أن يُعينك على التفكير فقد حقق غايته سواء اقتنعت بفكرته أم لا »

اعتمدتُ قاعدتين

ومن الجدير بالذكر أن الإعلان المذكور كان مبنيًا على قاعدتين مترابطتين وهما: أن تفكير المرء بحرية سيهديه إلى الفكر المهتدي، وأن الفكر المهتدي ليس مجموعة أفكار كلها صحيحة، بل هو عبارة عن أفكار مترابطة متعاضدة لا يضر بصلاحتها كون بعضها خاطئا

بناء على القاعدتين المذكورتين كنت أتوقع أن من يستمع

الحديث وهو حرّ فإنه سيشاركني في اتجاه الفكر ومساره العام وإن وجد بعض أفكارى خاطئاً إلا أن يكون ما يخطئني فيه أساساً في أصل التفكير، حيث أن ما يفرّق بين الناس اختلافهم في ما يفكرون، وأما تخطئة بعضهم لبعض في نفس الأفكار - لا في وجهتها - فإنها لا تضرهم بل تزيدهم تماسكاً وتعاوناً...

XXXXXXXXXXXXXXXXXXXX

خيبة ... وتذكر وتبصر

كنت أتوقع مما فعلت خيراً كثيراً لكنني بالتدريج بدأت ألحظ أن من ركزت عليهم في عملي وعقدت عليهم الأمل إما أنهم لم يتحرروا وأن قصارى ما حصل أنهم أخذوا يعتمدون عليّ في العقيدة بدل تولّي أناس آخرين والاعتماد عليهم!، وإما لاحظت فيهم تخبطاً أو انفلاتاً وطغياناً، كما أشرت إليه في فقرة سابقة

وكان لتلك التجربة تأثير متدرج على التفاتي لما كان يركز عليه القرآن الكريم والحديث الشريف من الولاية، كما أن لالتفاتي إلى الأمر المذكور كان تأثير على شعوري بمرارة التجربة، فكلما تدرج شعوري بالمشكلة واشتدت حاجتي إلى بحث جذري لحلها، وكلما اجتهدت في البحث أكثر زادت الولاية في نظري تجلياً

إمامة قائمة ضالة

من أبرز ما قد عرفته بصدد الولاية ما أشرتُ إليه في تعليقة سابقة وهو أن ما يحدد مسار أفكار الشخص ويسوقها إلى جهة معينة ليس قصده بل الإمامة التي يتبعها، فإن عرف إمامة الهدى واتبعها اهتدت أفكاره وقُبلت، وإلا ضلت وبطلت...، وأن العبد لا يعرف الهدى إلا أن يعرف الضلال، أي أن يعرف إمامة الضلال ليستطيع تجنبها، وبما أن إمامة العالم القائمة الآن ضالة فالعبد لا ينجو إلا بأن يعرف طريقته في التعامل مع الأمور والأشياء، ومن طريقته أنها لا فقط تنتقي أفكارا فتروجها وتهمل أخرى وتحاربها، بل أنها تكيد الصالح منها بتدجينه وتحريفه عن الوجهة التي كان يستهدفها من جهّزه وطرحه، وإن إمامة الضلال لا تحتاج في هذا إلى خطة خاصة، بل تجد لذلك أنصارا متطوعين من الناس...

فالأفكار الصالحة لا تصادم الضلال ولا تقاومه لمجرد كونها صالحة في نفسها، بل وقد يتغذى بها الضلال فيزداد قوّة واستفحالا وطغيانا بعد أن يحولها إلى قطع غير مترابطة، كما هو مشهود في العالم الآن... فإن ما يقاوم الضلال إنما هو الهدى، ولا يكون هدى إلا بإمامة، ولا تكون إمامة إلا بولاية...

كان فكري صالحا ولكن...

إن أفكارى كانت صالحة بإجمالها ولكنها لافتقادها ولاية مقاومة كانت تنزلق في مسارها فتقع في مصيدة إمامة الضلال فتدوب فيه أو تتحوّل إلى لغط ولغو وغثاء لا يسمّن ولا يغني من جوع، وإنّي أحاول توضيح هذا الأمر من خلال مثال:

أذكر أن شخصا أخبرني قبل حوالي عشرين سنة أن أستاذنا معروفا في الفلسفة قد مدحني، وبما أني كنت أقرأ له بعض الأحيان وأستجود بعض تحليلاته الفلسفية فإن مدحه لي أشعرنى بشيء من الاعتزاز بأفكارى الدينية، كما أثار المدح في نفسي طمعا في هداية الرجل الذي كان قطبا من أقطاب الليبرالية، وكنت حينذاك أرجو من المثقفين خيرا باعتبارهم أقدر على الفهم والفكر...

لا تضارب بين الأفكار

وبعد أن تدرّجت في العلم أخذت أتأذى وأستوحش من ذلك الشعور حيث علمت أنه كان نتاج الغفلة عن أن الرجل باعتباره من دعاة الليبرالية لم يكن يمدح دعوتي إلى الحرية تأثرا بها، بل لأنه وجد فيها شيئا شبيها بما هو معجب به... كما أنه وجد فيها ما إن لم ينفع مذهبه لم يضره حيث لم يرَ

في دعوتي إلى الفكر ما يصادم المذهب الليبرالي حتى وإن
 وجدها مختلفة عنه في خصائصها واتجاهها، وذلك لأنه كان
 يرى الليبرالية مذهباً عالمياً حياً، وكان يحسّ - ولعلّه كان يعلم
 أيضاً - أن ما يصادم دعوة قائمة ليست الآراء والنظريات التي
 تبدو مضادة لما تتضمنه الدعوة من نظريات، فإن الفكرة لا
 تقارع فكرة وإن كانتا مختلفتين بل وحتى إذا كانتا من مقومات
 دعوتين متناقضتين، إذ لا يمكن التعامل مع الفكر بمعزل عن
 دعوته، فالتضارب لا يكون بين الفكرين المختلفين، وإنما بين
 الدعوتين المتكونتين منهما

الفكر بحاجة إلى ولاية

ومن جهة أخرى إن الفكر الدعوي لا يستطيع أن يعيش بلا
 ولاية، فإن وجد ولاية تحتضنه وتقيم منه دعوة فهو، وإلا ضل
 وسقط في حزن دعوة أخرى فتقوم باستعباده واستخدامه
 بطريقتها الخاصة وبصورة أو أخرى، أو أن تهمله ليهلك عاجلاً
 أم آجلاً كما أشرت إليه قبل قليل، وأيضاً في التعليقة (٤)

تلك هي مشكلة الفكر الديني في العالم الآن حيث أنه يفتقد
 الولاية المناسبة في قبال ما له دعوة قائمة، فمن الطبعي إذن
 ما هو ملاحظ من فشل الفكر الديني، بل وذوبانه في الدعوة
 القائمة وتغذيتها...، هذا إذا كان الفكر الديني صالحاً في نفسه،

وكذلك كان فكري الديني قبل أن يحتمي بالولاية ويتجذر بها...

XXXXXXXXXXXXXXXXXXXX

ما أشرت إليه يكفي للدلالة على أنني قد تعثرتُ وعانيت كثيرا لأكتشف أن هناك خلافا أساسا كان في تصوري بأن مجرد الدعوة إلى الحرية سيوجدها في النفوس، وأن الطرح الفكري وحده كافٍ لجعل الناس مؤمنين، ولأجد أن الولاية التي تركز عليها الروايات المروية عن أئمتنا عليهم السلام كأساس للدين تعني قبل كل شيء أن الإيمان لا يحصل من دونها، ومعنى ذلك أن الولاية (أي التأثير والتأثر والاعتماد) ضرورية في الاعتقاد، على خلاف ما كنت أتصوره سابقا وأركز عليه

كان عملي ناقصا

وبتعبير أدق: إن ما قد فعلته سابقا كان ناقصا لا خاطئا، إذ لا شك فيما دعوت إليه من أن الإسلام يدعو إلى التفكير والتعقل والعلم وحرية النية، وأنه يعلن أن لا إكراه في الدين، وأن لا تزر وازرة وزر أخرى، وكنت على صواب في ما ركزت عليه من أن التزيين يؤثر على المرء ويدفعه للتنازل عن حريته، أي بأن ينوي ما يُملى عليه لا ما يختاره بتعقل، وأن الخطاب الديني الآن يستهدف التأثير فقط، وأنه يعتمد لأجل ذلك المبالغات والقصص وغير ذلك من وسائل التأثير العاطفي

وكننت على صواب في مخاطبة فكر الناس وتوجيه أنظارهم إليه وتنبههم إلى أن هناك تعاملًا خاطئًا مع الدين، والسعي لتحديد الأخطاء، هذا من جانب، ومن جانب آخر البحث عن صورة أخرى للدين مؤلفة من أفكار معقولة مترابطة مستنبطة من النصوص الدينية بصورة أو أخرى

لا دعوة بلا ولاية

أجل لم أخطئ في كل ذلك، وإنما أخطأت في طرحي للبديل بعيدا عن التأثير والولاية، فلم يُعتقد ما كنت أطرحه وإن تُفهم وتُقبل، مضافا إلى أن الأفكار التي كانت تتكون منها الصورة البديلة وإن كانت بإجمالها مترابطة بصورة شجرية إلا أنها كانت تفتقد الروح التي بها تكون شجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها، وتلك الروح هي ما يعبر عنه بالإمامة بلحاظ، وبالولاية بلحاظ آخر...

× × × × × × × × × × × × × × ×

الإمامة والولاية...

بكثير من القفز على مسائل لا يمكنني التدرج عليها الآن وإن كان ضروريا أقول: إن كون الإمامة والولاية أصلا في الدين يعني - في ما يعني - أن التدين لا يكون إلا بإمامة وولاية، فمبدأ

الإمامة يعني أن مجرد الاستماع إلى متحدث ديني والاقتناع بفكره لا يُجدي شيئاً للتدين، بل لابد من وجود رابطة خاصة بينهما وهي الإمامة، فمن جانب المتحدث فإنه يدعو المستمع إلى جهة حديثه ويؤمّه إليها، ومن جانب المستمع فإنه لو كان يتعامل بفطرته التي بها يطلب الدين في حديث ديني فإنه لا يكفي بمجرد الاستماع لغاية أو أخرى، بل يندفع مع المتحدث ويتبعه في اتجاه حديثه

الولاية تعهد متبادل

وكذلك مبدأ الولاية حيث أن استماع أحد لحديث ديني يعني تعهداً بأنه قد أوكل أمره إلى المتحدث اعتماداً على فهمه وطريقته، والمتحدث من جانبه قد تجاوب مع الاعتماد فتعهد المستمع ورأى نفسه مسؤولاً عنه، فأخذ يهتم بأمره ويستهدفه ويراعيه في حديثه... أي أنه يتصرف كوليّ على المستمع الذي قد اعتمد عليه باستماعه للحديث، هذا كله إذا كان المستمع إنما يستمع القول لاتّباع أحسنه، وكان المتحدث مؤمناً بما يقول، وإلا فلا قاعدة ولا نظام...

أجل إن واقع هذا (لا معرفته) شائع بين الناس المهمين بالدين، ولذلك يتأثر المستمع بالمتحدث، فبما أنه في أساسه حالة فطرية فلا إشكال فيه، وإنما الإشكال في أن الحديث

الديني قد لا يشير إلى طريق يُسلك، فمن الطبيعي إذن أن لا تكون هناك إمامة تُجسّد وإنما ولاية تمارَس للتأثير فقط، أو يكون للحديث جهة فتكون هناك إمامة للمتحدث كما تكون له ولاية ولكن الإمامة لا تكون صالحة مهتدية

الإمامة الكبرى هي المقياس

إن المقياس لكون إمامة مهتدية هو أن تكون مؤتمّة بالإمامة التي شرعها الله عزّ وجلّ وجسّدها الأئمة عليهم السلام، كما - مثلاً - في الكافي (١/ ١٩٨) عن الصادق عليه السلام أنه قال: «... لا يهتدي هادٍ إلا بهداهم - أي هدى الأئمة عليهم السلام -»، وذلك لا بمجرد الكلام والادعاء بل بالتجسيد العملي والإشارة إليها بصراحة ووضوح، ومن الطبيعي أن الائتّمام بهم لا يتوفر إلا لمن يعرف إمامتهم وهداهم، وهذا أهم ما أركز عليه في أحاديثي دعوة وبياناً...

× × × × × × × × × × × × × × × ×

لابد من ولاية مهتدية

كذلك عرفت - في ما عرفت - أن المشكلة ليست في نفس التأثير والتأثر بالحديث الديني كما تصورت سابقاً، فإن التأثير والتأثر مما لا بد منه، ولا يمكن منع ذلك إلا بمنع التدين

كنزعة فطرية في الإنسان، وإنما المشكلة في إمامة المتحدث فإذا لم تكن له وجهة يؤم إليها المستمع تاهت ولايته وطمح تأثيره عليه، وإذا كانت له وجهة خارج نفسه وشهواتها فإنه سيؤم المستمع إذن إلى تلك الجهة، فمن الطبيعي أن يستعمل حينئذ ولايته بالتدخل والتصدي لخدمة تلك الجهة وبمقدار ما تطلبه وتحتاجه، وبذلك يتحدد وينتظم تأثيره على المستمع، وإذا كان المتحدث مؤمنا بمعرفة فإنه يؤم إذن المستمع إلى جهة الأئمة عليهم السلام ووفق سُنَّتِهِمْ، وبما أن من سُنَّتِهِم التركيز على العلم وحرية النية والقرار فإنه يمارس ولايته الطبيعية لتحرير المستمع من القيود وتبصيره وجعله يعتقد بعلم لا يتأثر، أي أنه يؤثر عليه ليجعله لا يتأثر بمن يؤثر عليه بطريقة ضالة، وبهذا يصبح التأثير والتأثر خيرا ونعمة

× × × × × × × × × × × × × × × ×

لا حرية بلا ولاية

مقصودي الأساس من هذا الكلام الطويل هو أن تدخل الشخص فيما يرجع إلى استماع حديثه، ومتابعته لأثر ذلك على المستمع إنما هو (الولاية) التي يمارسها الإنسان في حياته اليومية وبصورة مستمرة تجاه كل أمر أو شخص يهمه بلا تكلف أو انتباه، ولا يمكنه أن يمتنع عنها في مورد إلا إذا كان مما لا

يهمه أو أن يتكلف الامتناع على مضض شديد لا يطاق، فمطلق التدخل في شؤون المؤمن لا يتنافى مع ما عبّر عنه (المنتقد) بـ(إرادة الإنسان المؤمن وفكره وحرّيته) وإلا لما شرّع الله عزّ وجلّ ولاية المؤمنين بعضهم على بعض... وإنما الذي ينافيها هو التدخل في نيّة المرء حيث أنها المنطقة الحرة الوحيدة التي لم يجعل الله عليها الولاية لأحد غيره، فما ظلت نيّة المرء حرة فهو حرّ لم يضرر حرّيته شيء من القيود كما أشارت إليه رواية الكافي (٢/ ٨٩) عن الصادق عليه السلام

لابدّ من صبر النفس مع المؤمنين

بل إن المرء لا يستطيع ممارسة حرّيته إلّا أن يكون مع أناس يماثلونه في التطلعات ويشاركونه في الطريق فيشكلون معاً أمة وإن كانت مصغرة، ولا تكون أمة كذلك إلّا بولاية بعض أفرادها لبعض وولاية الجميع لأمر مشترك يمثله الإمام ويدعو ويهدي إليه وإن كان غائباً...، بل وإن تحقّق الحرية الحقيقية لأحد وهي أن يكون بحيث لا يؤثر شيء على نيّته بحاجة إلى ولاية لا لتعلّمه كيفية المحافظة عليها وتنميتها فقط، بل لتسندة نفسياً وتثبيت فؤاده فيستطيع أن ينوي ويحب ويغض بنفسه ولنفسه، ومن المفترض أنه إذا كان كذلك نوى وجه الله باعتباره المسار الوحيد الذي قد فُطر عليه الإنسان، وإلى هذا يشير ما في

الكافي (٤٦ / ٢) عن الصادق عليه السلام أنه قال: « ... ولكل شيء أساس وأساس الإسلام حبنا أهل البيت »

لأظَلَّ حُرًّا

إن انتباهي لموضع الولاية وأثرها على الإنسان في هداة أو ضلاله، وفي أنه لا يكون حراً يمشي سويا على صراط مستقيم إلا بولاية تحميه المؤثرات والفتن وتزيل عن طريقه العقبات ... أقول: إن انتباهي لذلك قد فرض عليّ أن أدنو ممن أعرفه من المؤمنين وأسعى لتوليهم، وأن أعرض عن المشككين ومعرقلي سيري على الصراط، سواء بكلامهم أو باللامبالاة الظاهرة من سيرتهم حيث أنهم يوحون إليّ اللامبالاة وإن لم يقصدوا ذلك، وإنني لو لم أتجنبهم فإما تأثرت بهم كما في الكافي (٢٧٥ / ٢) أنه قال رسول الله صلى الله عليه وآله: « المرء على دين خليله وقرينه »، أو استفزني وضعهم وألهاني عن وجهتي

أردت أن أقول: كما أنني لا أستطيع أن أكون حراً في (يتي) إلا بولاية هادية إلى الحق، لا أستطيع أن أكون حراً أمشي سويا على صراط مستقيم إلا بأن أتجنب من قد يستضعفني بصورة أو أخرى في قراري ويتي، فالحرية التي أنشدها لنفسي تفرض عليّ وتجعلني أن أصبر نفسي مع من يمارس حرته في الإيمان بربه والتقرب إليه ويتخذ سبيل المؤمنين سبيلا، وأن لا أتخذ

من يجادل في الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير خليلاً
 فيضلني عن الذكر بعد إذ جاءني

ولأحمي المستمع

وبنفس الملاك فإن انتباهي لموضع (الولاية) جعلني أشعر
 بالمسؤولية تجاه من يريد الاستعانة بي في ممارسة حريته،
 فرأيتُ أن عليّ السعي لحمايته ممن يتصدى له ليؤثر على نيّته
 رغماً عنه، وأن أبعد عنه من يتراءى لي أنه يُبطل أثر الحديث
 في نفسه ويوحي إليه الشك والارتياب بالقول أو العمل وإن
 كان بلا قصد...

... لا إيمان بلا ولاية

ومن زاوية أخرى فإن مما أثبتته لي التجربة والملاحظة
 والاستقراء أن النفوس لا تكاد تكون حرة في نيّتها وقرارها
 إلا بولاية، لا لترعى حريتها وتحميها في الواقع فحسب، بل
 لتعبر بها النفس وتتولاها أيضاً، فإن من طبيعة النفوس أنها لا
 تطمئن إلا كذلك، وأنها لو لم تتولّ ظلت قلقة حيرى بلا نيّة
 حقيقية نابعة عن أساس ثابت، فلم تتمكن إذن من قصد وجه
 الله والإيمان به حتى وإن تمكنت من معرفة ذلك بقدرة قادر...

أقول: إن هذه الحقيقة المجربة والملاحظة قد دلّتني على سبب رئيس من أسباب تشريع ولاية الأئمة عليهم السلام وهو أن الإيمان بالدين لا يتمّ من دونها، وإن فرض سلامة مسائل الدين في نفسها، وفرض أيضا إمكان فهم تلك المسائل بمعزل عن الولاية، وإن كان الفرضان باطلين إذ لا بد من الولاية أيضا لحفظ مسائل الدين وحمايتها، وبيان المسائل وتعليمها...

المتحدث ومن ثمّ حديثه

إن ما أشرت إليه آنفا من حاجة النفوس في الإيمان إلى الولاية ينعكس في مظاهر متعددة من مظاهر حركة النفوس الطبيعية، منها ما نحن بصده هنا من أن المستمع إنما يهتدي بشخص المتحدث إذا كان مؤمنا وكان حديثه صالحا، فإن ما يتعامل معه المستمع مباشرة ليس الحديث الذي يسمعه، بل المتحدث ومن ثمّ حديثه، هذا إذا كان طالبا للهدى، وإلى هذا يشير الحديث المشهور الذي رواه الكافي (٦/ ٤٣٤) عن الباقر عليه السلام: «من أصغى إلى ناطق فقد عبده... الخ»، ولذلك حثت الروايات على أن ينظر المرء إلى من يأخذ عنه علمه كما في الكافي (١/ ٣٢)، وما في البحار (٢/ ٩٦)، وأن يتعلم العلم من حملة العلم كما في الكافي (١/ ٣٥)

لم تُفرض الولاية لمجرد التعبيد...

أجل، لو أمكن الاهتداء بالأفكار والمفاهيم وحدها لأمكن الإيمان والاهتداء بالكتاب وحده باعتباره تبياناً لكل شيء بلا حاجة إلى ولاية الأئمة عليهم السلام، فإن الولاية لم تُقرن بالكتاب تعبيداً، بل تشريعاً وهداية، أي لحاجة الكتاب الواقعية إلى الولاية والإمامة في هدايته للتي هي أقوم

XXXXXXXXXXXXXXXXXXXX

كذلك، وبالتدريج وعبر كثير من الرصد والبحث والمراجعة، وصلت إلى قناعة واضحة ثابتة بأن الدعوة الدينية لا تنجح إلا بالولاية بمعنى أن يقوم الداعي بإيصال الفكر إلى نفوس المستمعين بدل الاكتفاء بإيصاله إلى أذهانهم الأمر الذي كنت أفعله سابقاً، وهو لم يكن يحتاج إلى الولاية والتأثير، فإن ما هو بحاجة إلى ولاية وتأثير هي النفس لتعتقد، لا الذهن ليفهم

XXXXXXXXXXXXXXXXXXXX

الولاية الهادية لواقع الحياة

أعود فأقول: إن السبب الرئيس لذلك الخطأ الأساس وأخطاء أخرى متزامنة أنني تعاملت مع الولاية بالطريقة المتعارفة حيث قمت بالبحث في النصوص والكتب عن ولاية الأئمة عليهم

السلام، وبعد أن تأكدت منها، أخذت أتعامل معها بالطريقة الرائجة المعروفة من اعتبارها أصلاً من أصول الدين وفي عرضها وإن كان أهمها حسبما جاء في كثير من النصوص الدينية، واعتبارها الأصل المظلوم الذي لا بد من القيام للدفاع عنها بحماس لا يخلو من تعصب، والاستناد إلى أحاديث الأئمة عليهم السلام، وذكرهم، مع حبهم وبغض من ظلمهم، والاهتمام بسيرتهم للتأسي المباشر

الزهد أو مجرد (تقشف)؟

من أمثلة التأسي بسيرة الأئمة عليهم السلام أني حينما وجدت - في ما وجدت - أن علياً عليه السلام كان يزهد في الدنيا ويحارب الترف والمترفين، حاولت أن أزهد في الدنيا وأتجنب الترف وأحاربه في النفوس وأن أطرح ذلك وأدعو إليه... وهو ما جعل كثيراً من الناس يتصورون أن ما أدعو إليه هو (التقشف)، خصوصاً وأن من روّاد المسجد من أخذوا يمارسونه - أي (التقشف) - بشكل ملفت، كما أن منهم من تكلف التركيز على التقشف بلا أي رغبة للزهد في أمور أخرى كالجاء مثلاً، وذلك خلافاً لما كنت أفعله من الدعوة إلى (الزهد) باعتباره حركة شاملة

ثم إنني كنت أطرح (الزهد) ضمن شجرة الدين فأسعى لأن تكون متكاملة من جهة، وأن تكون مسائلها مترابطة فيما بينها ومتدرجة ومتفاعلة مع بعضها كترابط أجزاء الشجرة وتدرجها وتفاعلها من جهة أخرى، ومن الطبيعي أنني كنت أستند في ذلك أيضا إلى القرآن الكريم، وأبذل لهذا وذاك جهدا جهيدا، وكنت أتصور أن بذلك يقوم الدين المتقوّم بالكتاب والسنة، غفلة عن أن ذلك الجهد سيظل عقيما، بل وأن الفهم نفسه يبقى متكلّفا لعدم اعتماده الولاية، كما أشرت إلى ذلك في تعليقة سابقة...

الفهم المتكلّف ... :

من أمثلة فهمي للدين بمعزل عن الولاية: أنني كنت أتصور أن قول الله عزّ وجلّ: «كُتِبَ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ...» تشمل المسلمين الآن أيضا وتعتبرهم خير أمة كما كانت في حياة النبي صلى الله عليه وآله، ومعنى ذلك أنني في فهمي للآية المذكورة لم أنتبه إلى ما كان للنبي (ص) من ولاية فعلية على الناس بما فيهم المنافقون، شأني في هذا الفهم شأن عامة المسلمين بما فيهم المفسرون الشيعة...، وحينما عرفت الولاية وموقعها من الدين علمت - فيما علمت - أن المسلمين لا يكونون خير أمة إلا بولاية، هذا حتى لو لم يكن هنالك نص

يشير إلى أن الأمة في الآية هي (الأئمة)، كما في كتاب البحار
(١٥٤ / ٢٤) وغيرها

فهم انسيابي مريح

إن هذه البصيرة لا أنها أراحتني فقط من التكلف في محاولة
تصور المسلمين (خير أمة) الآن بل في اعتبارها مجرد (أمة)،
بل قد نظمت فهمي للدين ومسائله عامة وجعلتني أراها مترابطة
متعاضدة مناسبة إلى غايتها بلا تكلف، كما أجابت على كثير من
التساؤلات التي لم أكن أجد لها إجابات وافية، فكنت أصبر
عنها بناء على أن المقدار الذي أعرفه يكفي لي يجعلني أقنع
بإطار الدين ووجهته فلا يضرني جهلي بالمسائل التي أعلم
إجمالاً أنها لو لم تؤكد الصورة الموجودة فإنها لا تصطدم
مع أساسياتها

XXXXXXXXXXXXXXXXXXXX

الإنسان موجود ولائي (لا ذهني)

ومهما كان من أمر فإنني أؤكد هنا أن أهم باب قد فتحه لي
مبدأ الولاية هو ما أوصلني إلى فهم الإنسان بصورة مختلفة عن
السابق: كنت أتصوره موجوداً عقلياً (ذهنياً) بحثاً يكفيه الفكر
ويهديه وإن كان فرداً، بل يجب أن يكون فرداً مستقلاً وإن كان مع

الناس... فاكتشفت على ضوء الولاية أنه موجود إمامي بفطرته لا يهتدي إلا بإمام وولاية، وكذلك أخذ الله على الناس الميثاق وهم ذرّ كما أشار إلى ذلك ما في (١/ ٤١٣) من الكافي، وغير ذلك من النصوص...، بل وجدت أن الإنسان لا يستطيع أن يفكر بحرية إلا بولاية صالحة، أي أنه لا يكون حراً إلا بها كما هو مجرب وملاحظ، وقد وضحت ذلك في فقرة سابقة

كان هذا الفهم من أبرز مظاهر الرؤية التي دلني عليها بهذا الصدد مبدأ الولاية الذي كان لتجاريبي الفاشلة التأثير الأساس في اكتشافي له واهتدائي إليه كمفتاح الأمر وباب الأشياء، وبتبلور هذا الفهم وصلت إلى ما لا يخفى من أسلوبِي الذي رآه كثيرون مغايراً لطريقتي القديمة، وأنا أراه موجّهاً وهادياً ومكمّلاً لها ومائلاً لثغراتها ومنشطاً لها، وإلى القارئ بعض التوضيح لهذا الأمر المهم فأقول:

طرح الفكر بلا ولاية سهل مستسهل

لم يكن صعباً عليّ الحديث لما كنت أنظر إلى المستمع كموجود عاقل (مفكر) فحسب، وذلك لأن ضوابط الفكر النظري الذهني معروفة بإجمالها فيتيسر فهمها لمن يهتم بها كما تشهد به المحاولات المعروفة بـ(المنطق) وإن لم تكن ناجحة، ولم

أكن أعاني كثيرا في استنباط فكرة من آية قرآنية أو رواية أو الحصول عليها بطريق لا يرفضه الدين...، كما لم أكن أواجه عقبات مستعصية في طريقي إلى تنظيم الأفكار وهدايتها باختيار أحاديث دينية خاصة للإجابة على مسائل فكرية فعلية، أو لإثارة مسائل معيّنة تدفع الفكر إلى الأمام في مساره المفترض، الأمر الذي كنت أكتفي به لهداية المستمع عادة

التكلف في العمل

بلى، لقد كنتُ أعاني من التكلف في استنباط الأفكار وتنظيمها ولكنني كنتُ أتغاضى عن ذلك وأتحمل مشقته باعتباره مما لا بد منه في الفكر سواء أكان دينيا أو فلسفيا عاما، ولكن بما أنني لم أكن أستهدف الفكر للتداول الذهني، بل للعمل (أي التدوين)، كان من الطبيعي أن أعاني من التكلف في العمل بدرجة أو أخرى...، وكلما ازددتُ دُنُوًّا من مبدأ الولاية وإحساسا بها ازددتُ تشخيضا للتكلف وإحساسا به ومعاناة منه لا فقط في تطبيق الفكر والعمل وفقه، بل وفي أصل الفكر أيضا كما أشرت إليه في التعليقة (٤) وفي هذا الفصل أيضا

أخوة إيمانية متكلفة!

أعود إلى سهولة طرح الفكر بلا ولاية فأقول: كما كنتُ

أستسهل الفكر وتجهيزه، كان يمكنني أيضا التأكد بسهولة من أثر الحديث في المستمع إذ كان يكفي لذلك رصد كلامه الذي يعبر عادة عن مدى فهمه للأفكار المطروحة ومدى تقبله لها، ولم أكن أطلب أكثر من ذلك، فمن وجدته كذلك حدثته وتفاعلت معه وارتبطت به واعتبرته أخا في الدين، غفلة عن أن الأخوة الإيمانية ليست مجرد رابطة بين شخصين تتشابه أفكارهما الدينية، بل ولا بين أناس متفقيين في طريقة التفكير، وإنما الرابطة القائمة بين أشخاص مؤمنين بأمر مشترك ومتولين لإمامة واحدة ومتقربين بها إلى الله

الولاية صعبة مستصعبة

ولكن حينما تبين لي أن ما يهتدي به الإنسان إنما هو قلبه لا ذهنه، وأن فكره لا يمكن أن يهتدي إلا عن طريق هداية قلبه، فإن اهتدى وأمن اهتدى بتبع ذلك فكره واتجه الاتجاه الصالح، وإن ضل قلبه ضلّ بتبعه الذهن، فإمّا هام الفكر في كل وادٍ، أو اتجه اتجاه شهوة من الشهوات... فلما تبين لي ذلك أصبح عملي صعبا لا في اختيار الأحاديث المناسبة فإن أحاديثي السابقة كانت مناسبة بشكل عام لهداية القلب وإن كانت ناقصة، بل في صياغتها صياغة تدخلها القلب لا عن طريق العاطفة بل عن طريق التعقل، وكذلك في طريقة الحديث

والتعامل مع المستمع حيث بدأت أشعر بأن عليّ مسؤولية تجاهه أكبر مما كنت أتصور، وزاد هذا الشعور ثقلا على قلبي أن في المستمعين من لا يكاد يفهم أن ما أفعله إنما هو ناتج عن شعوري بالمسؤولية تجاه الحديث والمستمعين فيتصوره تدخلا في شؤونهم وتقييدا لحريتهم

أجل بمقدار ما كان ذلك الاكتشاف عظيما، كان العمل وفقه صعبا حيث كان يتطلب موازنات دقيقة جدا، فإن الولاية كما أنها تؤثر على الحرية إيجابا وتساعد على تحقيقها في الناس كذلك تؤثر عليها سلبا فتسلبها عنهم، فلا بد أن تكون الولاية بحيث تؤثر الحرية وتبلورها وترسخها بدل أن تؤثر فيها سلبا، بل وأن تحميها عن التأثير بولايات منافية للحرية، وهذا بحاجة إلى كثير من الدقة والحذر

XXXXXXXXXXXXXXXXXXXX

تلك هي تجربتي وما تمخضت عنه، حاولت الإشارة إليها أملا في أن تكون نافعة لطالب العلم إذا كان متنبها إلى أنها لا تكاد تكون إشارة معبرة عن واقع التجربة كما حدثت فإنها قد تدرجت عبر حوالي أربعين سنة، وكانت شجونا جدا، فلهذا وذاك وغيرهما لا يمكنني اختزالها بل ولا استذكارها إلا بكثير من الخبط والقفز والخلط بين الأسباب والمسببات، كما أن

التجربة في نفسها قد شابها كثير من التخبط لا فقط بسبب الغفلة والجهل، بل وأيضا بسبب الضعف، ولا حول ولا قوة إلا بالله...

الأئمة (ع) بلحاظ مقاماتهم و...

لا يخفى أن المقصود الأساس هنا لم يكن الحديث عن ولاية الأئمة عليهم السلام وإمامتهم فيما يرجع إلى مقاماتهم عند الله عز وجل ومناقبتهم وفضائلهم، فإن الإمامة بهذا اللحاظ « أجل قدرا وأعظم شأنًا وأعلى مكانا وأمنع جانبا وأبعد غورا من أن يبلغها الناس بعقولهم أو ينالوها بآرائهم... » كما في الكافي (٢٠٠ / ١) عن الرضا عليه السلام، فهي ليست مما يُتناول في مقال، بل هي مما لم يكلفنا الله به كما في الكافي (١٦٣ / ١) عن الصادق عليه السلام: « إن الله احتج على الناس بما آتاهم وعرفهم »، وكما في الكافي (١٦٤ / ١) أيضا عنه عليه السلام: « ما حجب الله عن العباد فهو موضوع عنهم »، فيكفي بهذا اللحاظ العلم إجمالا بأن لهم (عليهم السلام) عند الله مقاما عظيما، ثم تصديق ما ورد عنهم (ع) من تفاصيل مقاماتهم وفضائلهم...

الأئمة (ع) بلحاظ كونهم وُلاةً وأئمة

وإنما أردت الإشارة إلى ولايتهم وإمامتهم في الجانب الذي

كان الله قد كلّف به الإنسان بعد أن عرّفه وآتاه القدرة على العمل به، فهي بهذا اللحاظ ليست غريبة خارقة، بل مما يعرفه الناس باعتبارها من نمط الولاية التي يمارسها الناس بأنفسهم في حياتهم اليومية لا فقط فيما يأمرّون وينهون ويدعون... بل في كل ما يقومون به من التصرف بتوجيه شيء وسوقه إلى جهة من الجهات

أجل إن ولاية الأئمة عليهم السلام بلحاظ ارتباطها بالناس هي من سنخ ما يمارسه الناس ولكنها مهتدية في نفسها وهادية و(إمام) لغيرها، ولولا أنها كذلك لما عرفوها وما لم يعرفوها لم يتطلّعوا إليها، وما لم يتطلّعوا إليها لم يهتدوا بها، إذ لا يُكلّف الله نفساً إلا ما آتاها

× × × × × × × × × × × × × × × ×

حجب الحديث لا ينافي الحرية

ومع غض النظر عن كل ما ذكرت في هذا الفصل والتعليقة (٤)، وبناء على أن الحرية ليست إلا ما يتصوره العامة، وأن الإنسان يستطيع أن يكون حرّاً بنفسه، وأنه لا يحتاج في ذلك إلى أيّ عون، بل وأن الإعانة تضرّ حرّيته... فإنني لا أجد تلازماً بين (الدعوة إلى الحرية) وبين إذاعة الحديث، ولا أرى أن حجب أحاديثي الدينية عن أحد يضرّ بحرّيته ولا بحرّية الذين يستمعون

لي ما دمتُ لا أجبرهم على الاستماع، ولا أفرض عليهم قيدا رغما عنهم، فإني لا أرى (التقييد) منافيا للحرية إذا كان برغبة وإرادة حرة، بل أراه ضروريا لتحقيق الحرية ومجسدا لها... والذي ينافي الحرية هو القيد المفروض على أحد إما بصراحة ووضوح، أو بمكر وخداع مقصود، وهذا ما أحاول تجنبه إن شاء الله، أو بطريق غير مقصود وهذا ما أعوذ بالله منه

الهدف من المقال ليس المنتقد، بل...

ولا يفوتني هنا التأكيد على أن ما أشرت إليه في التعليقتين: (٤) و(٧) إنما استهدفت به طالب العلم، فإنه الوحيد الذي قد يجد فيه ما يدلّه على بعض ملامح الحق، أو يبصره - على الأقل - بطريقتي فكان على بيّنة في الاقتراب مني أو الابتعاد عني، وأما المنتقد فإني لم أستهدفه في هذا المقطع بالذات، وأكرر ما ذكرته في البدء وهو أنني سوف لا أتجاوب معه ما لم يستطع الانكشاف، بل وما لم ألمس تغيرا جذريا في تعامله مع المسائل...

(٨) - تكرار وتكرار!

لأنني وجدتك تكرّر كلمة (متابعة المستمع) وتركز عليها

أراني بحاجة لأكرر التأكيد على أن ما أفعله ليس في واقعه متابعة للمستمع، بل متابعة أثر حديثي عليه حسبما يفعله أي إنسان مهتم بكلامه بدرجة أو أخرى، ويكفي لهذه المتابعة ما يظهر لي من اهتمام المستمع بما أهتم به وأركز عليه في أحاديثي...

هدف معروف وطريقة مكشوفة

ومن جانب آخر فإنني لا أستهدف بالابتعاد عن أحد أن أجعله (يعود إلى رشده)، ويكفي سببا لذلك أنني لا أخطط للناس ولا أتصدى لأحد، تطبيقا لما أعتقده من أن الدين لا إكراه فيه، وأن التدين لا يكون إلا بالطلب وبرغبة شخصية، ولذلك أمتنع عن التحدث إلى من لم يظهر لي أنه راغب بنفسه في طلب الدين، وهذا معروف من أسلوب وطريقتي في التعامل مع الناس، كما أن هدفي معروف، فكيف خفي عليك ذلك؟!

أدعو إلى حرية النية

أجل إن هدفي معروف وطريقتي صريحة من خلال تعاملتي ومن خلال أحاديثي حيث أدعو إلى الحرية وأذكر المستمع باستمرار بأن (حرية النية) مما لا بد منه في التدين، وأبين له ما أعرفه من أن نية الشخص التي هي أساس دينه لا يملكها غيره، وأن الله إنما يحاسبه بها، وأحذره من الغفلة عنها وأذكره

بما أعرفه من العوامل المؤثرة على النية. وبكلمة مختصرة: إن ما أقوم به هو التعليم والتبصير وأن يكون لكل امرئ نوره...، وأن لا تزر وازرة وزر أخرى

إعلان وتأکید

إنني أغتنم هذه الفرصة أيضا لأؤكد ذلك الأصل وأقول: إنني أدعو إلى حرية النيات كما أشرتُ إليه في أكثر من مورد من هذا المقال وأن أحب الناس إليّ أملكهم لنيّته وقراره شريطة أن يكون مؤمنا، وأن من أبعد الناس عني من كان خاضعا في نيّته وقراره لغيره...

XXXXXXXXXXXXXXXXXXXX

لابد من متابعة أثر الكلام...

إن ما ركزت عليه من متابعتي لأثر حديثي على الأشخاص ليست بأكثر من ملاحظة طبيعية منتشرة بين الناس، فمن أراد أن يطرح على أحد أمرا مهما عزيزا فإنه يرغب ويتمنى أن يهتم به المستمع، فلا بد أن يلاحظه ويتابع أثر كلامه عليه ليكتشف مدى اهتمامه بذلك الأمر المهم وكيفية تفاعله معه، فلو لم يجد منه الاهتمام المطلوب حاول جعله يهتم، وإلا تركه وشأنه

كذلك يفعل الناس

أجل إن ما أقوم به من متابعة أثر حديثي فيمن يستمع لي ليس أمراً استثنائياً، فإن ذلك ما يفعله كل من يهتم بعمله، ولا أظن المرء بحاجة في ذلك إلى نص خاص كقوله تعالى: (وَقُلْ أَعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ) بل والمتابعة في التعليم شائعة جداً بحيث لا تعليم إلاّ بها، وليس لي تعليمات خاصة أوأخذ الناس بها، فكل ما لدي هو الحديث الديني المكشوف الذي أستهدف به التدين، ولا أنكر أنني أقرب ممن أراه مثلي في المعرفة والاعتقاد والإيمان، ولا أجد هذا غريباً حتى لمن لا يعرف الولاية وأثرها الخطير...، فإن كل مؤمن يحب الأكثر إيماناً حسب فهمه للإيمان، بل وإن كل معلم يقترب أكثر من أشد طلابه اهتماماً بعلمه...

ليتك رسمت لي طريقة واقعية للابتعاد عما لا ترتضيه من طريقتي، فهل ترى من الواجب عليّ أن أعامل جميع الناس على سواء بأن أقرب من الجميع أو أتجنبهم بلا فرق؟ أم ماذا؟...

(٩) - التباعد أم التواصل

أنا لا أتفاعل مع من يريد إرضائي إلاّ أن يكون راغباً في

ما أستهدفه، وأراني كغيري قادرا على تشخيص الراغب من المتكلف..

هذا، ويبدو أنك تفترض أن الأصل في العلاقة المطلوبة بين المتحدث الديني والمستمع هو (التباعد والتدافع) - أو عدم التواصل - ، بل وترى أن العلاقة الطبيعية بينهما لا تكون إلا كذلك، ولذلك ترى أن إرضاء المستمع للمتحدث لا يمكن أن ينتج عن رغبة وحب، وأنه لو حدث ذلك فهو مما يتكلفه المستمع

لا أريد أن أقول هنا: إن العلاقة المطلوبة - بل الطبيعية - بين المتحدث الديني والمستمع باعتبارهما مؤمنين على الأقل إنما هي (التعاطف والتحاب والتراحم...)، ولكني أسألك قائلاً: لو أنني استسلمت لك وللذين يطالبونني بالتحدث (الحر) فقررتُ أن لا أمنع حديثي عن أحد، ثم حدث أن أخطأ بعض المستمعين الحياد المطلوب الذي تفترضه فأحبني، فقام بما جسّد حبه لي بشكل أو آخر، فماذا ترى عليّ أن أفعل لمنع ذلك؟

(١٠) - التكلف لا ينتهي إلى النفاق

ليس التكلف مما يصل إلى النفاق الذي هو إظهار الإيمان

وإبطان الكفر، فإنهما طريقتان مختلفتان لا تلتقيان... وأظنّ هذا واضحاً لمن تدبّر المسألتين

(١١) - لا أدري ما هي تلك الروايات، فإنك أبهمتها ولم تشر إليها ولا إلى مصادرهما، ووددت أن لا تلقي عهدة حكم عام ومبهم إلى بعض الروايات المجهولة وأنت بصدد الإشكال والإفحام، ثم وإنك لم تذكر مبنى حكمك القاطع بأن متابعة المستمع يوجد فيه تكلفاً...، وأظن أنك انطلقت في ذلك من تجربة شخصية أو مضافاً إليها بعض التجارب الأخرى، فهي لا تكفي لحكم عام، وإنني كعينة من الناس لا أجد ما وجدته أنت في هذا الصدد، حيث أنني حينما كنت أستمع لمتحدث ديني وددتُ أن يرصد أثر حديثه عليّ، وكنت أعتبر ذلك دليل اهتمامه بي، وكان ذلك يدعوني إلى الاهتمام به وبحديثه وإلى مزيد من النشاط للاستفادة منه، ولم يكن يوجد فيّ التكلف، ولا أبرئ نفسي من درجة من تكلف طبيعي لا يخلو عنه أحد في حركته وإن كانت حرة خصوصاً في مقام العمل والتطبيق الخارجي، إذ من غير الميسور دائماً التفريق بين ما هو تكلف وبين ما هو جهاد لا بد منه، خصوصاً للذلل على المؤمنين والكون معهم هذا إذا كان مراقبة المتحدث (لأثر حديثه عليّ) لأجلي

وكنْتُ أحبَّ حديثه ومتابعته، وأما لو لم أكن أطلب حديثه أو لم أرغب في متابعته لي فإني لم أكن أتكلف إرضاءه، بل أترك الاستماع لحديثه، اللهمَّ إلاَّ أن أكون بحاجة إلى حديثه لا للهدى بل لغاية أخرى، ولم يكن الرجل مؤمناً، فإني كنت أجامله إذن...

متابعة المستمع لا تستلزم تكلفه

وحتى لو لم تطلع على ما ذكرته من تجربة فإني لا أظن أحداً يستطيع التأكد من أن متابعة المستمع يوجد فيه تكلفاً في التصرف، فإن تصرف امرئ بطريقة معيّنة لا يدل دائماً على أنه متكلف إذ قد يكون ذلك التصرف ناتجاً عن رغبة واعتقاد وحب، وإني أضرب لك مثلاً: أفترض أن (زيداً) يتقرب من (علي) ويتودد إليه ويقوم بخدمته، وأفترض أن لـ(علي) جاهاً يجذب كثيراً من الناس، وأفترض أنه مؤمن أيضاً، فإن الحكم على نية زيد من تصرفاته يختلف باختلاف الأشخاص، فمن نظر إلى علي كصاحب مكانة مرغوبة فقط فإنه يحبس أن زيدا يتحذلق بتكلف ما لا يحبه، وقد يقفز من مجرد الحس إلى الحكم القاطع بأن زيدا كذلك، بل وقد يطرحه كقاعدة عامة فيقول مثلاً: «كل من تقرب من علي فهو متحذلق»، كما - ومن جانب آخر - قد يوجه اللوم إلى (علي) بما له من مكانة معتبرا إياه السبب في تكلف الناس الاقتراب منه...

وفي المقابل هناك من لا يلتفت إلى جاه علي بل ينظر إلى كونه مؤمنا، ويحمل فعل زيد على أفضل الوجوه وهو أنه يفعل ذلك حقا وصدقا، أو لا يحكم عليه بشيء إلى أن يسأله، فما أجاب به على سؤاله قبل قوله وصدقه

... لم أظنك جاداً

ومهما كان من أمر فإني لا أظنك جاداً في حكمك بأنه قد تصل حالة التكلف في بعض مراحلها إلى النفاق...، حتى لو بالغت مبالغة غريبة وتصورت لي موقعا رهيبا مخيفا يمنع الناس عن خلافي، فيضطرون للتظاهر بالتيدين خوفا

لا علاج لهذا التكلف...

ومع ذلك كله أعترف بأن هناك تكلفا بدرجة أو أخرى في تعامل البعض معي، بل ولا أنفي أن هناك تدينا متكلفا، ولا أنكر أن لأسلوبي الجاد تأثيرا فيما يتكلف به معي، وأعلم إجمالا أن هناك طريقة أفضل من أسلوبي لو سلكتها خفّ بذلك التكلف وقلّ المتكلفون، ولكنني لست متمكنا من تلك الطريقة، بل أرى أنها غير ممكنة تماما لأحد في الحال الحاضر على الأقل، فمن ركز في ترويح الدين على الجدّ فلا بد وأن يتوقع نفورا وطعنا وتهجما من جهة، و تكلفا من جهة أخرى...

لا أبتغي المتكلفين

ومما أعزى به نفسي في هذا الصدد ما هو معروف عني، و
كما أشرتُ إليه آنفاً، من أنني لا أفاعل مع من يتكلف رضاي
في حركته بل وأزداً ابتعاداً عنه وحذراً منه، ولا أظن التكلف
خافياً على العارف بالأمر ومعالمها وأبوابها

المجافاة، أم ماذا؟

هذا، ويبدو من انتقادك أنك تفترض المستمعين فاقدى الإرادة
والاختيار، فترى أن اهتمامهم بالحديث واقترابهم من المتحدث
إنما هو تكلف منهم نتيجة قيد مفروض عليهم، ولا تحتل أن
يكون ذلك حركة طبيعية ناتجة عن اختيارهم الحر وممارسة
لحريتهم، فكأنك لا تعتبرهم أحراراً إلا بمخالفتهم للمتحدث
وعدم مشاركتهم له في أمر واقتراقهم عنه!، بل ويتراءى لي
أنك لا ترى المستمع حراً غير متكلف إلا بأن يظهر لك أنه لا
يحب المتحدث...

(١٢) - لا خطورة فيما ذكرت

على الرغم من أنني لا أتصورك جاداً في (قياسك) بل وحتى
في افتراضك الموقف المذكور من أساسه، ولكنني أجاريك وأقف

معك للإشارة إلى أسس فكرية أراها نافعة لطالب العلم (إن شاء الله) فأقول: إنك لم تذكر دليل حكمك بخطورة الموقف المذكور، ولم تحدد الذي يتجه الخطر إليه فهل هو نفس الإمام المفترض، أم الناس، أم الدين؟

ليس كل غريب خطرا

أفترض أنك حكمت بها لكونه غريبا، ولكن غرابة أمر لا تدل على أكثر من أنه غير مألوف، ولا ملازمة بين أن يكون شيء صحيحا وبين أن يكون مألوفاً ومتعارفاً، وعلى فرض الملازمة فإنها إنما تكون بين غرابة الشيء وبطلانه، لا بينها وبين خطورته، فهناك ما هو غريب وباطل ولكنه غير خطر

ولعلك حكمت بخطورة الموقف لتصورك أن ذلك سيربك الناس ويوقعهم في حرج من جهة الصلاة، أو أن ذلك قد ينتهي إلى انقطاع صلاة الجماعة....، ولكن هذا الافتراض غير صحيح فإن بإمكان الناس أن يقاطعوا الإمام المذكور ويصلوا مع أئمة آخرين وهم كثيرون، بل وأن لا يبالوا بمنعه فيستمروا في الصلاة خلفه إن كان عادلا، فإنه لا يشترط رضى إمام الجماعة في الائتمام به، وإذا عاند وتصدى للمصلين خلفه فإن متولي المسجد سيقوم بمنعه عن ذلك أو تبديله بإمام آخر، إذ لا يحق له المنع ما دام إماما راتبا وظيفته الإمامة في المسجد

إذن لا خطر من ذلك إلا على نفس الإمام حيث يبقى بلا مأموم أو يُزاح عن موقعه إذا كان ممن يهمله ذلك، ولا ضرر فيه على الدين أو المسلمين...

لا خطر في إبداء الرأي...

هذا إذا افترضتَ الخطر في موقف الإمام المذكور، وأما إذا كنت قد افترضت أن الرأي المذكور في نفسه خطر وإن لم يستتبع موقفاً، فإني أطمئنك أن ذلك لا يضر شيئاً، شأنه في ذلك شأن كثير من الآراء الشاذة التي يسمعها المرء أو يقرأها هنا وهناك، كما وأني أرى أن مقتضى الحرية هو أن لا يتصدى لأحد في رأيه ما لم يبطل حقاً معروفاً، فهل ترى هذا الرأي خطراً كذلك؟

(١٣) - من التقية ما هو (دينٌ)

لم تكن (التقية) خاصة بالأئمة عليهم السلام وبزمنهم، بل هي دينهم ودين المؤمنين عامة، بل وإن التقية بمعنى (الحذر الديني) مطلوبة الآن أكثر مما كان في عهد الأئمة عليهم السلام كما في (الكافي: ٢/ ٢٢٠) عن أبي عبد الله عليه السلام أنه قال: «كلما تقارب هذا الأمر كان أشد للتقية»

هذا، ومع ذلك صحيح أن في روايات (باب الکتمان) ما هو خاص بهم عليهم السلام، ككثير مما رواه الكليني (ره) في باب الإذاعة من الكافي

(١٤) - التبويب لا يدل على ما ذكرت، كما لا يُقَلَّد الكليني (ره) وغيره من مؤلفي الأخبار في آرائهم وإن كانت صريحة، ولا ينافي ذلك مكانتهم العظيمة، ولا يخفى هذا وذاك على من له إلمام بهذا النمط من المسائل

(١٥) - لا يكون اعتقادٌ إلا بإرشاد

لا أدري ماذا تقصد بالأوامر الإرشادية، فإن كنت تقصد بها معناها المعروف، فإن في تلك الروايات ما ظاهرها مولوي، كالذي رواه الكافي (٢/ ٢٢٢) عن أبي جعفر عليه السلام أنه قال: «... ولا تبشوا سرّنا ولا تذيعوا أمرنا...»، وغيره، بل وإن النهي الذي تضمنته الرواية التي ذكرتها أنت مولوي أيضاً، ولو سألت من له إلمام بهذا النمط من المسائل لأخبرك بذلك...

قلت هذا جدلاً ودفاعاً، وإلا فإن تعاملي الأساس مع تلك الروايات ليست معاملة مولوية، بل للاستفادة منها كمؤشرات عقائدية وإن كان ظاهرها أمراً أو نهياً مولوياً، ولم أطرحها للمناقشة

بلحاظ كونها سندا لحكم شرعي فإن مناقشتها كذلك تتطلب تخصصا في الفقه، وإنما لألفت الأنظار إلى مفهومها لأجل الاعتقاد، الأمر الذي لا بد منه للمعرفة، شأنها في ذلك شأن النصوص الدينية الأخرى التي أذكرها عادة للمستمع...

هذا، ومع ذلك لا أنكر أنني قد أستفيد من الروايات المذكورة (منهجاً للعمل) أيضا بتفصيل لا مجال له هنا إلا بالإذاعة...

(١٦) - أنا لم أفهم ذلك من عنوان الباب بل اطلعت على روايات باب الكتمان وغيره، فإن روايات الكتمان ليست مقتصرة على ما في هذا الباب، فمثلا إن الكليني (ره) قد روى في كتاب العلم (١/ ٥١) رد الإمام الباقر عليه السلام على زعم الحسن البصري بشأن كتمان العلم، كما وأن أمير المؤمنين عليه السلام قد أشار إلى ذلك في خطابه لكميل... الخ

أرجو وأتمنى أن لا أكون بالإشارة إلى الروايتين قد جعلتهما عرضة للخوض والإبطال ووسيلة للتخاصم والتغالب، فإنها قيلت لغير ذلك

(١٧) - لا أدري ماذا تقصد بهذه الكلمة، فهل تقصد - مثلا

- أن ما رواه الكافي (٢/ ٢٢٢) عن الصادق عليه السلام أنه قال:

« يا سليمان إنكم على دين من كتبه أعزه الله ومن أذاعه أذله الله » ليس إلا مجرد تذكير بما يحصل في حياة الناس العادية؟ ليتك أردت أن تقول: إن تعبير الأئمة عن أمرهم بالسر، والأمر بالكتمان، والنهي عن الإذاعة كما في الكافي (٣٧٠ / ٢) عن الصادق عليه السلام أنه قال: « المذيع حديثنا كالجاحد له » ليست طريقة استثنائية بل ما يقوم بها الناس في حياتهم الطبيعية، فإن أحدهم إذا اهتم بأمر وأعزه خاف عليه وصانه، وإذا عرضه على أحد ولم يجد منه اهتماما أعرض عنه، وهذا ما نحن نركز عليه في فهمنا لهذا النمط من الروايات

(١٨) - لا علاقة للفتويين بوجوب أو استحباب نشر الحديث ابتداء، وهما تعالجان مسألة متعلقة بكلام منشور في مقال أو شريط قد أصبح ملكا لأحد بطريقة أو أخرى، فله أن يتصرف فيه كما يشاء، ولا حق لأحد منعه عن ذلك إلا أن يكون قد شرط عليه ذلك حين نقل ملكية المقال أو الشريط إليه...

ثم إنه كما لا علاقة للفتويين بمسألة نشر الحديث أو حجبها لا علاقة لهما بأصل الإباحة كذلك بشرح أراني في غنى عنه الآن، ولو شئت معرفة ذلك ولو لأجل الجدل في إمكانك سؤال من هو ملم بهذا النمط من المسائل، وهم كثيرون

(١٩) - وإني أشاركك الدعاء وأرجو أن يجمعنا الله على هدى نعرفه ونتبعه معا فنستطيع أن نكون بذلك إخوانا متحابين متعاونين يشد بعضنا بعضا وينصره ويستتر عورته... وليس ذلك على الله بعزيز، إنه على كل شيء قدير، وإنه كان بنا رحيمًا وبضعفنا بصيرًا

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

محمد علي الباقر

٣ / رجب / ١٤٢٠

نص رسالة...

بسمه تعالى

السلام عليكم

فكرت في حديثكم حول التميز، وتبين أن الرغبة في التميز موجودة في كل إنسان، ومجسدة بصورتين الأولى في ما هو منتشر بالعالم من سعي للتمييز، والصورة الثانية هي كالأمثلة التي ذكرتموها من تعامل أصحاب الأئمة عليهم السلام، فكرت في شخصيات غير دينية تذكرونها أحيانا كشاهد على أن من تصبح له قضية يكون متواضعا ورغبته في التميز تكون لخدمة قضيته، شعرت بأن الموضوع مهم ويتطلب سعيًا جادا ليصبح الدين قضيتي الحقيقية.

(.....)

بسم الله الرحمن الرحيم هكذا آمنت

ما جاء في هذه الرسالة مثال لطريقة التعامل مع الحديث الديني الشائعة، إني أحاول أن أشير إلى شيء مما يرتبط بهذه المشكلة لأتنفس به مما أعاني منه، و...، فأقول:

يبدو أن كاتب الرسالة سمعني أتكلم عن التميز فرآه صحيحاً ف شعر بأنه موضوع مهم ويتطلب سعيًا جاداً ليصبح الدين قضيته الحقيقية، ولا يُدرى لِمَ لفت نظره الكلام عن التميز؟ وكيف تبين له صواب الفكرة؟ وما الذي جعله يشعر بأن الموضوع مهم؟ وماذا يقصد بالضبط (بالدين) الذي يتطلب منه سعيًا جاداً ليصبح قضيته الحقيقية؟ وماذا يعنيه من هذه الجملة؟ ولماذا عليه السعي الجاد لذلك؟، وكيف يسعى؟، ولماذا كتبه لي؟، وأسئلة أخرى كثيرة لا أظن إمكان الإجابة عليها إلا بتكلف...

ذلك لأنه - كما بدا لي - أراد (فهم) ما كنت قد تكلمت به عن الدين، شأنه في ذلك شأن جُل الذين استمعوا أحاديثي، لولا كلهم، فركزوا على المسائل التي نطقت بها ليفهموها قبل أن يعتقدوها، ولأنني لم أكن أهدف إلى تعليمها المستمع وإلا لحققت كل واحدة منها وأثبتتها ووضعتها في موضعها، فكانت

النتيجة ما جربته من عدم حصولهم إلا على تصورات مبشرة لا جامع يجمعها ومنظم ينظمها ولا مقياس للتأكد من سلامة شيء منها...، فإذا أراد أحدهم التدين بها أكب على بعضها واعتبره الدين المطلوب، وبما أن ذلك ليس مما يهمني ولا أترصده، ولا يترتب عليه أثر في الواقع لأراه فلا أعلم بأنه استفاد شيئاً إلا بأن يتكلف إخباري بذلك...

وبما أنني مدرك لخطر الفهم بلا إيمان يثير ذلك فيّ الخوف كما روي عن أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال (لكميل): «بلى: أصبت لقنا (أي سريع الفهم) غير مأمون عليه - أي على علمه (ع) - مستعملاً آلة الدين للدنيا، ومستظها بنعم الله على عباده وبحججه على أوليائه»

وحتى لو وجدته لا يقصد استغلال الدين، فحيث أراه يركز على بعض ما سمعه فيتضخم على حساب أمور أخرى، فإني أخاف أن (يئذره) ويضعه في غير مواضعه فيتشوه بذلك ما (أراني) متعهداً له وساعياً إليه ومجاهداً به

ومهما يكن من أمر الرسالة فإني أحاول أن أشير هنا سريعاً إلى شيء من الطريقة التي آمنت بها والتي أراها الوحيدة التي يمكن الإيمان بها، فأقول:

التركيز على (الفهم)

في بدايات رحلتي الإيمانية كنت متأثراً بالنظرة السائدة الداعية إلى التدين (بفهم الدين)، فلما كنت أقرأ القرآن الكريم كنت أحاول أن أفهمه فأدقق فيه وأرجع لذلك إلى التفسير... وطيّ رحلة مليئة بالعثرات والتخبط تبين لي بالتدريج أن ما أفعله لا يؤدي إلى إيمان، بل وحتى إلى فهم مستقر كما أشير إلى ذلك في (هكذا آمنت ٢)، وأن ما اعتمده القرآن في هدايته للناس ودعا إليه النبي صلى الله عليه وآله هو (الإيمان)، لا (الفهم)، كما اتفق عليه المفكرون وتواصوا به...

كما قد وجدتني كنت أتعامل مع أي كلام ديني أستمعه أو أقرأه، فإني وإذ كنت أدقق فيه لأفهمه بذهني فأقبله أو أرفضه...، كنت قد أتأثر به وأتفاعل معه، وأنجذب إلى أحسنه فأتبعه إن لم أكن أدقق فيه، وإلا لكنت أتوقف عنده فلا أستطيع المشي والاتباع...

ذلك قبل أن أعلم بالتجربة والملاحظة أن هذا هو ما فطرني الله عليه وأنه الباب الذي يؤدي بي إلى الإيمان، وعلمت ببحث مضن أن هذا ما اعتمده الدين وحث عليه، ولم يدع إلى التدقيق في مسأله وفهمها، وأن ذلك لن يؤدي إلى الإيمان، وأن التركيز

على فهم المسائل الدينية يجعله هدفا بذاته وإن لم يُقصد ذلك، فيلتهى به عن الإيمان...، وأن الناس يعلمون ذلك بغريزتهم فإذا أراد أحدهم التدين فإنه لن يلجأ إلى هذه الطريقة حتى لو كان من القائلين بها نظريا، وإنما يسلك الطريقة الفطرية، ولكن بما أنها غير معروفة لكثيرين كان هنالك كثير من التخبط والتهافت...، ومن هنا كانت ظاهرة إقبال كثير من كبار العلماء على التصوف والعرفان كما ذكر ذلك في (هكذا بحثت ٢)

أجل، بعد كثير من المعاناة وطرق أبواب شتى، وبالتدريج، علمت أن فطرتي هي التي تدفعني إلى (الإيمان)، وأنها هي التي تدفعني إلى استماع الحديث الديني، وتجعلني أطمئن إلى ما أسمعه أو أقرأه أو أفكر فيه وأؤمن به فأعرف أنه الحق...، وبالتدريج اطمأنت إلى أن ذلك هو الطريقة الوحيدة لمعرفة الحق والإيمان به، وأن الطريقة العقلية التي تدعو إلى (فهم) الدين قبل الإيمان به لا تؤدي إلى شيء يُطمأن إليه...

فهم بلا تركيز

ومما وصلت إليه بالتدريج هو ما أشير إليه في (هكذا آمنت ٢ - فصل المقال نوعان) من أن طالب الإيمان يعلم (بفطرته) أنه لا يحتاج إلى فهم جميع ما يستمعه واستيعاب تفاصيل ذلك، بل ويعلم غريزيا أن تدقيقه في ما يستمع يؤثر

سلبا على ما هو في صده من الإيمان ويضره، فلا يستنفر فكره لسماعه ولا يدقق فيه، ويكتفي بأن يفكر فيه بلا تركيز خاص كما يفكر في أي شيء آخر يهمله ويطلبه بجد...، فإن كان ما يسمعه صالحا لمح فيه ما يشير إلى معالم سبيل الله الذي يؤمن به ويُتبع، فاستبشر واستمر في استماعه كذلك وازداد نشاطا وازداد بالتدريج ما لمح في البدء واشتد وضوحا وتذكيرا له بمعالم دين الله فازداد علما وإيمانا وقياما به

وعلمت بالتجربة أن ما يبدو (لغير الطالب للإيمان) مستحيلا (من الجمع بين الاهتمام الجاد بما يُستمع، وعدم التدقيق في ما يُسمع) يجعله ممكنا، بل حقا واقعا، هو حب المستمع للإيمان وطلبه له، وأن ذلك كما (يهديه) إلى ما يحقق له الأمن فيعرفه ويتمسك به هو الذي يعصمه عن التوغل فيما يلهيه عن إيمانه

اتباع الداعي

وعلمت أن من أهم ما يجعل (المؤمن) قادرا على تلك الموازنة هو ما تستوجبه فطرته من دفعه إلى استماع الحديث الديني واعتماد المتحدث واتباعه إن وجدته مؤمنا (كانت له دعوة)، حيث يعلم - وإن لم يكن واعيا لذلك - بأنه لن يستطيع الإيمان بحديث أحد إلا بالكون معه...، وأنه باعتماده المتحدث

واتباعه له يستطيع المشي وإن لم يفهم بعض ما يقوله، أو لم يستحسنه، ما دام يعلم إجمالاً أن المتحدث مهتد فلا يضل معه، وأنه لا يسأل أجراً فلا يستغله...، وهذا مما كنت أسعى إلى تذكير المستمع به ليكون مشيه بوعي وعلم...

وتبين لي أن من يستمع حديثاً دينياً بلا أن يجد في نفسه ولاية للمتحدث فيتبعه فهو إما يستمعه لغاية أخرى غير الإيمان كالحصول على أفكار دينية مثلاً...، وإما يريد التدين ولكن لا بطلب (الإيمان) واعتماده بل بالطريقة التي يدعو إليها العقليون والشائعة جداً، وهي أن ما يسمع يجب أن يفهم أولاً ثم يُعتقد، فبما أن فهم كلام المتكلم لا يتوقف على اتباعه، بل ينافي ذلك...، فيرى أن له (بل عليه) أن يكون محايداً تجاه المتحدث...

اهتمام الداعي

هذا، ومما أرى أنه يساعد المستمع على اعتماد المتحدث واتباعه والمشي معه هو علمه الغريزي بأن المتحدث سيهتم به ويتعهده، فلولا هذا العلم لم يستطع اعتماده واتباعه، فمن هنا يتصدى الشيطان له (أي للمستمع) لجعله (يركز) على اهتمام المتحدث به ولفت نظره إلى نفسه، بدلاً من (الإيمان) الذي ينظم الله به أموره ويوفر ما يحتاجه للهدى بصورة طبيعية غير متكلفة، منه حاجته إلى أن يحبه المتحدث والمؤمنون، فهو

باهتمامه بغريزته الضالة واتباعه لها لا فقط يخسر حب المؤمنين له بل وينفّرهم، ويستفز المتحدث فإنه إن كان صالحا إنما يهدف إلى تكبير الله في نفوس مستمعيه ليجاهدوا في سبيله تعالى، فطمعا في أن يصبح من يستمع إليه عوناً له في ما يهدف إليه إن رأى أحداً أقبل عليه ليستمع إليه استبشر واهتم به إن ظهر منه ما يشير إلى نجاحه في مسعاه، وإلا شعر بخيبة أمل شديدة ظهر في تعامله معه...

بل وبما أن المتحدث الهادف المتعهد لحديثه من جانبه يعلم أن مستمعه لا يقدر على الإيمان الذي هو في صدره إلا بكونه معه واتباعه له فهو يرصد مستمعه ويراقبه، فإذا لمح أنه لا يتبعه فظن إما أنه لم يجد فيه الإيمان الذي يتبع، أو أنه لا يطلب الإيمان، فلا يتفاعل به ولا يتفاعل معه، ويخاف أن يتحدث إليه...

إشارة وتأكيد...

وعلى أي حال فإشارة سريعة جدا إلى شيء لا بد من الالتفات إليه، وتأكيدا لما كنت قد قلته سابقا، أقول: إن المؤمن (أي طالب الأمن الحقيقي) إن سمع كلاما دله على طلبته آمن به ولا يبحث عن شيء آخر إلا ما يرجو فيه مزيدا من الإيمان، وما تدفعه إليه أيضا فطرته من الاطمئنان بأن ما وجدته ليس (وهما) بل هو أمن حقيقي، فيبحث عما يؤيد ما حصل له

ويسنده، وهذا يجعله يطلع (إجمالاً) على وجوه المقالات الدينية الرائجة و(دعوتها)...، فلو لم يجد فيها ما يلبي حاجته الفطرية إلى الإيمان فإن ذلك يزيده اقتناعاً بأن ما هو عليه حق

الجهاد والجدال

هذا، وإن المؤمن بحاجة أيضاً إلى الاطلاع على المقالات الدينية لغاية أخرى وهي (الجهاد) الذي يتطلبه ويستلزمه إيمانه، فإنه يجد في نفسه أنه لن يكون مؤمناً إلا بأن يكون مجاهداً، والجهاد لا يتم إلا بالجدال بالتي هي أحسن، والجدال كذلك لا يمكن إلا بالعلم بالمقالات والقدرة على التعامل معها...

وليست القدرة على الجدال بالتي هي أحسن ما يحتاجه المؤمن لأجل الجهاد فحسب بل ويحتاجه أيضاً لحماية إيمانه، فإنه حيث يفترض قد جاهد في طلب الإيمان وسعى إليه ليحصل عليه، قد جرب أن كثيرين ينتقدون إيمانه بشكل أو آخر، بل ويطعنون فيه...، فهو بحاجة لا فقط إلى العلم ببطالان تلك الطعون، بل وأيضاً إلى القدرة على إسكات المنتقدين والطاعنين بأن يجادلهم بطريقة لا تستفزهم...

هذا، وإن القدرة على الجدال... تتطلب من العلم والحكمة ما لا يتوفر لكل مؤمن، ولا ضرورة لذلك ما كان في المؤمنين

المشاركين في ما يؤمنون به أناس قادرون على الجدل بالتي هي أحسن

وعلى أي حال فبعدما علمت ما أشرت إليه واعتمدته وبنيت عليه توقعت أن من يستمع حديثي إنما يطلب به الإيمان، فصرت أسعى لأن أذكر محاسن الدين التي كنت قد جربت (الإيمان بها) آملا أن يجد فيها المستمع مؤشرات إلى ما يؤمن به ويجاهد...، فمثلا لما تحدثت عن (التميز) كنت أرجو أن يذكر ذلك المستمع بما يعرفه قلبه ويجده حقا ويحبه باعتباره مما يتحقق به (العدل) الذي كنت أفترض أنه مهتم به وينشده ويعيشه في قرارة نفسه ويحتمي به ويتنظره...، فيتصل ما وجده في الحديث بغيره مما كان قد حصل عليه بالتدريج وآمن به، فيزداد بذلك علمه بسبيل الله وضوحا ورسوخا، كما - ومن جهة أخرى - رجوت أن يذكره الحديث (بحكمة) الله عز وجل فيزداد بذلك معرفة به وعبادة له

أجل، كنت أعلم أن إيمان الشخص، أي حاجته إلى الأمن الحقيقي الشامل، هي (القضية) التي قد فطره الله عليها وعلى السعي إليها، فإذا عرفها وتعهدا واعتمدا انتظم ما يسمعه ويقرأه ويفكر فيه وأصبح هادفا، كما وتتظم بذلك علاقاته وتتأصل حيث لا يكون إيمانه قضية شخصية له بل قضية

جميع المؤمنين فإنهم يحبون الإيمان ويهدفون إليه ويجاهدون لتحقيقه، فيترصدونه ويرجونَه ويتنظرونه، وإذا لمحوا فيه ما يشير إلى ذلك استبشروا به أخا لهم وعونا في جهادهم في سبيل الله...، كما وأنه من جانبه يحب المؤمنين ويسكن إليهم ويكون عندهم ودليلهم، وينصرهم ويتنصر بهم

بل إنه - قبل أي شيء آخر - يعتمد علم المهتدين فيتبعهم ويقتدي بهداهم...، فإنه لولا كذلك لم يطمئنا إليه ولم يثقوا به ولم يؤاخوه إن كانوا مؤمنين

XXXXXXXXXXXXXXXXXXXX

تلك إشارات سريعة ومقتضبة جدا إلى ما علمته من الدين، وما عرفته بالتجربة، سجلتها هنا كنقطة مصدر حيث لم أحقق ما كنت في صدده، وعسى أن يرحمني الله...

محمد علي باقري

٦ رجب ١٤٣٧

